(١)

كعب بن سور الأزدي القاضى

٣٦ هجرية

ذلك رجل قد وهب من القدرة العقلية والبدنية ما أهله لأن يحتل مكاناً مرموقاً عند عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، الذى رأى فيه قدرات جديرة بالإجلال والتقدير ، وهو الرجل الذى يعرف قيمة الرجال ولا يتردد فى أن يستعين بمن يشيم فيه الخير منهم فى الميدان الذى يحسنه ، وقد تعرف إلى قدرة كعب على الحكم والقضاء فى موقف مثير أبدى فيه من عمق النظرة والتغلغل بفكره إلى ماوراء الكلمات ، والفهم الدقيق لما توحى به كنايات الكلام مما يدل على معرفة دقيقة بالطبيعة الإنسانية وفهمها فهماً جيداً واضحاً مستنيراً .

أما ذلك الموقف العجيب الذى لفت انتباه عمر رضى الله عنه إلى قدرة كعب فيبدأ بأن امرأة تأتى إلى مجلس عمر يدفعها دينها وخوفها من الوقوع فى الإثم أو الفتنة أن تفضى إلى عمر بذات نفسها ، فإن ذلك خير من العار والإثم ، ويمسكها الحياء أن تصرح بما تريد ، وفى حومة الصراع الداخلى عند المرأة وتوزعها بين هذين العاملين تقدمت إلى مجلس عمر ، ولم تجد بداية خيراً من أن تثنى على زوجها وتشكر فيه عفته ودينه وتقواه . فتقول عن زوجها هو من خيار أهل الدنيا ، يقوم الليل حتى الصباح ، ويصوم النهار حتى يمسى ، ثم أدركها الحياء فلم تستطع أن تواصل عرض قضيتها .

ولم يتنبه عمر إلى ما رمت إليه المرأة ، ولم يحاول أن يستحثها ليعرف ماوراء ذلك ، وظن أنها جاءت لتزكى عنده دين زوجها وتقواه ، فقال لها : جزاك الله خيراً فقد أحسنت الثناء ، وانصرفت المرأة من مجلس الخليفة بعد

أن دفعها دينها إلى عرض قضيتها على الرجل المسئول حتى لا تقع فى الخطيئة وهى الشابة الجميلة ولكن الحياء أدركها فعقد لسانها عن الاستمرار فى عرض جوانب قضيتها ، بعد أن ألمحت إلى ما تريد فى عفة وصون وحياء وخفر وذكاء شأن الصالحات العفيفات ولئن شغلت أمور أخرى أمير المؤمنين عمر عن أن يلمح ماأشارت إليه ، فإن ذلك لم يفت كعباً الذى كان فى مجلس الخليفة آنذاك ، ولم تكد المرأة تعود أدراجها حتى بادر كعب الخليفة عمر رضى الله عنه قائلا : ياأمير المؤمنين ، لقد أبلغت فى الشكوى إليك .

فقال عمر : وما اشتكت ؟

قال كعب : زوجها .

سأل عمر : أكذلك أرادت ؟

أجاب كعب : نعم .

قال عمر : ردوا على المرأة ، فردت .

فقال لها : لابأس بالحق أن تقوليه ، إن هذا يزعم أنك جئت تشكين زوجك أنه يتجنب فراشك .

قالت : أجل ، إنى امرأة شابة ، وإنى أبتغى ما يبتغى النساء .

وأدرك عمر أن هناك أمراً ذا بال دفع بهذه المرأة الصالحة أن تغادر بيتها، وتأتى إلى مجلس الخليفة ، وأراد أن يزيل أسباب الشكوى وهو فى نفس المجلس فأحضر الزوج ، ولما ضمه المجلس هو وزوجه قال عمر لكعب : اقض بينهما .

فقال كعب : أقض وأنت شاهد ؟

ولكن عمر الذى يذعن للحق ويقدر مكانة الرجال رد عليه قائلا : إنك فطنت إلى ما لم أفطن إليه .

وقد يظن ظان أن كعباً كان على علم سابق بقصة المرأة، فدفعها إلى القدوم إلى مجلس الخليفة، لعله يدفع زوجها إلى رعاية حقوق أهله عليه، ولذلك لم تفته لمحة المرأة الخفية إلى غرضها بحيث لا يتنبه إليها إلا الفطن البعيد الإدراك.

ولكن هذا الظن لا يلبث أن ينهار سريعاً ويتبدد حينما نمضى مع بقية القصة، ونلقى بأسماعنا إلى أحداثها الأكثر إثارة ودهشة، حتى إن عمر نفسه لم يتمالك نفسه، ولم يستطع أن يخفى دهشته من القدرة الفائقة التى أبداها كعب، والتى تكشف عن سلامة فقهه فى الدين، واستقامة معرفته بهدى القرآن الكريم والوقوف على أسراره.

وأمام دعوة عمر كعباً أن يقوم بالفصل فى تلك القضية لم يجد بداً من الإدلاء فيها بما يرى حسب فهمه لكتاب الله تعالى.

فقال: إن الله تعالى يقول: «فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع». صم ثلاثة أيام، وأفطر عندها يوماً، وقم ثلاث ليال، وبت عندها ليلة.

قال عمر: هذا أعجب إلى من الأول.

والحق أن كعباً كان موفقا غاية التوفيق فى حكمه، ولذلك رأى عمر رضى الله عنه أن ينتفع المسلمون بهذه العقلية القضائية الفذة، فبعث به قاضيا على البصرة، وهناك ظل كعب يتولى القضاء ويدبر شئونه طيلة خلافة عمر وعثمان، وكنا نود أن تحفظ لنا كتب الأخبار طائفة من قضايا ذلك الرجل الموهوب إلا أن ما أثر من قضايا كعب لم يتجاوز هذه الحادثة البالغة الإثارة.

فمن هو كعب هذا؟ وتروى كتب التراجم أنه من الأزد من بنى ضبة وأنه استوطن البصرة منذ أن بعثه عمر إليها وبعض الرواة يعده صحابياً والأكثرون يعدونه من التابعين وهو الأرجح، وهناك فى البصرة كانت له مشاركة كاملة فى أمور الحكم وسياسة الناس والجهاد، ويبدو أنه كان مسموع

الـكلمة فى قومه ، وأنه إلى جانب مقدرته فى القضاء كان فارساً معدوداً ومحارباً مشهوداً له بالفروسية والقدرة فى الحرب ، ولذلك كتب عمر إلى أبى موسى الأشعرى واليه على البصرة أن يبعث إلى الأهواز بجند كثيف وذكر من الرجال المعدودين فيمن ذكر كعب بن سور ، وهناك أبدى كعب من ألوان البطولة والشجاعة والمهارة الحربية ما يجعله فى عداد القادة العظام ، فقد روى الطبرى أنه أحد ثلاثة أبطال كل منهم قتـل من أعداء المسلمين مائة مبارز فى أثناء حصارهم لتستر ، ولما أراد النعمان بن مقرن قائد الجيش أن يختار عدداً من الفرسان المعدودين ليقتحموا المدينة بعد أن دلوا على ناحية منها كان كعب واحداً من هؤلاء القلائل الذين اختيروا لهذا الاقتحام .

أيام فتنة عثمان :

ولمـا ذر قرن الفتنة أواخر خلافة عثمان رضى الله عنه واشتد الأمر بعث أمير المؤمنين برسائل إلى الأمصار يدعوهم فيها إلى اللحاق بالمدينة ، وقام فى كل مصر جماعة من صلحائه وذوى الرأى فيه يدعون الناس إلى اللحاق بأمير المؤمنين بالمدينة حتى يأخذوا على أيدى مثيرى الفتنة ، وكان كعب فى البصرة ممن يحثون الناس على اللحاق بعثمان رضى الله عنه ، ممـا يدل على أن الرجل كان مرموق المـكانة فى البصرة ، وكان لا يزال قائماً بقضاء البصرة منذ ولاه إياه عمر بن الخطاب فى السنة السابعة عشرة من الهجرة .

وعلى الرغم من جد رجال من أمثال كعب فى الأمصار المختلفة ودعوتهم الناس إلى اللحاق بالمدينة للوقوف مع الخليفة المظلوم عثمان رضى الله عنه ضد دعاة الفتنة ، إلا أن الداعين إلى الفتنة كانوا أسرع ، فلم يمهلوا الخليفة حتى قتلوه وهو يقرأ القرآن .

فى أتون الفتنة :

وبدأ بذلك دور من الصراع الدموى الذى أذهل المسلمين وحير أمرهم وانفتح باب من الشر على مصراعيه لم تفلح محاولات العقلاء وذوى الرأى

فى إغلاقه ، وانطلقت الفتنة تأكل الأخضر واليابس ، وتلف الأمصار الإسلامية برداء أسود كئيب تلطخه الدماء المراقة هنا وهناك وحاول كعب أن ينأى بنفسه عن هذه الأحداث إلا أنه لم يستطع فقد دفع إليها دفعاً على الرغم منه ، وتكشف الرواية التالية عن الصورة التى دخل بها كعب فى حومة الصراع حتى راح ضحية بريئة من ضحايا هذه الفتنةمع الكثيرين البرآء ، يقول ابن سعد إن كعبا لما سمع بقدوم طلحة والزبير وعائشة إلى البصرةدخل بيتا وطين عليه فيه وجعل فيه كوة يتناول فيها طعامه وشرابه اعتزالا للفتنة . إلا أنه لم يترك وما أراد من اعتزال الفتنة على عادة الكثيرين فى ذلك الوقت فقد أشير على السيدة عائشة أن كعبا لو خرج معك لم يتخلف عنك من الأزد أحد ، فركبت إليه فنادته ، فلم يجبها .

فقالت : يا كعب : ألست أمك ولى عليك حق ؟

فلم يستطع التمادى فى عدم الرد ، وكلمها فقالت له : إنما أريد أن أصلح بين الناس .

محاولة لإحلال السلام :

ولما اشتد الأمر بين رجال طلحة والزبير وبين أتباع الإمام على بقيادة عثمان بن حنيف والى البصرة اتفقوا على وقف الحرب وأن يبعثوا رسولا إلى المدينة يبحث حقيقة بيعة طلحة والزبير إذا كانت كرها أو طواعية فإن كانا أكرها أخلى عثمان لهما البصرة وإن لم يكونا أكرها خرج طلحة والزبير واتفق الطرفان على أن يقوم بهذه المهمة كعب بن سور وكتبوا بذلك كتابا هذا نصه :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا ما اصطلح عليه طلحة والزبير ومن معهما من المؤمنين والمسلمين ، وعثمان بن حنيف ومن معه من المؤمنين والمسلمين : إن عثمان بن حنيف يقيم حيث أدركه الصلح على ما فى يده ، وإن طلحة

والزبير يقيمان حيث أدركهما الصلح على ما فى أيديهما ، حتى يرجع أمين الفريقين ورسولهم كعب بن سور من المدينة ، ولا يضار واحد من الفريقين الآخر فى مسجد ولا سوق ولا طريق ولا فرضة ، بينهم عيبة مفتوحة حتى يرجع كعب بالخبز ، فإن رجع بأن القوم أكرهوا طلحة والزبير فالأمر أمرهما ، وان شاء عثمان خرج حتى يلحق بطيته ، وإن شاء دخل معهما ، وإن رجع بأنهما لم يكرها فالأمر أمر عثمان ، فإن شاء طلحة والزبير أقاما على طاعة على ، وإن شاءا خرجا حتى يلحقا بطيتهما ، والمؤمنون أعوان الفالح منهما » .

وتابع كعب رحلته إلى المدينة حتى وصلها يوم جمعة فاجتمع الناس لقدومه وتحدث فيهم كعب شارحاً مهمته التى جاء من أجلها فقال : يا أهل المدينة إنى رسول أهل البصرة إليكم ، أأكره هؤلاء القوم هذين الرجلين على بيعة على ، أم أتياها طائعين ؟

فلم يجبه أحد من القوم إلا أن أسامة بن زيد قال : اللهم إنهما لم يبايعا إلا وهما كارهان ، وثار الناس على أسامة وهموا به حتى كادوا أن يقتلوه لولا أن عدة من أصحاب رسول الله استنقذوه من أيديهم فيهم صهيب بن سنان وأبو أيوب بن زيد ومحمد بن مسلمة .

وأخذ صهيب بيده حتى أدخله منزله وهو يقول : قد علمت أن أم عامر حامقة ، أما وسعك ، ما وسعنا من السكوت ؟

وكان الاعتقاد السائد بعد عودة كعب أنهما بايعا مكرهين .

وكان الأمر قد بلغ الإمام على فبعث إلى عثمان بن حنيف يعجزه ، ويقول : والله ما أكرها ! لا كرها على فرقة ، ولقد أكرها على جماعة وفضل فإن كانا يريدان الخلع فلا عذر لهما ، وإن كانا يريدان غير ذلك نظرنا ونظرا وعاد

كعب بما رأى فى المدينة فى الوقت الذى ورد فيه كتاب الإمام على إلى عثمان ابن حنيف ، فلما طلبا إن عثمان التخلى لها أجاب بأن الأمر قد دخله عنصر جديد بعد رسالة الإمام على .

وأياً ما كان الأمر فإن السعى إلى الصلح لم يبلغ مداه ، وتفاقم الشر من جديد ، وزاد الأمر شدة بعد أن وصل على ومن معه ، وعلى الرغم من محاولة على وطلحة والزبير تفادى الحرب إلا أن الأمر لم يكن من السهل السيطرة عليه ، وهذه الجوع يقف بعضها مواجها لبعض فأى خطأ غير مقصود سيصيب الناس بكارثة تذهب ضحيته آلاف من الأرواح البرئية .

وقد وضحت هذه النتيجة لرجل مثل كعب فأراد أن يجنب قومه مغبة تلك المخاطرة التى لا يدرى أحد عاقبتها ، وذهب إلى رأس الأزد يومئذ صبرة ابن شيمان ، فقال له كعب بن سور : إن الجوع إذا تراءوا لم تستطع؟ وإنما هى بحور تتدفق ، فأطعنى ولا تشهدهم ، واعتزل بقومك ، فإنى أخاف أن لا يكون صلح ، وكن وراء هذه النطفة ، ودع هذين الغارين من مضر وربيعة فهما أخوان ، فإن اصطلحا فالصلح ما أردنا ، وإن اقتتلا كنا حكاماً عليهم غداً .

ولكن صبرة لم يستمع لنصيحة كعب .

شهيد السلام :

ولما راى كعب اندفاع الناس نحو الحرب ، وأبصر النتيجة المفجعة التى ستحل بالمسلمين من هذه المعركة لم يبق أمامه إلا ان يستحث عائشة لعلها تحاول أن توقف نشوب الحرب فتوجه إليها قائلا : أدركى فقد أبى القوم إلا القتال ، لعل الله يصلح بك ، وتقدم يسحب جمل عائشة لعل الله يصلح الأمر على يديها : فلما رات الحرب قد اشتعلت قالت له : لخل يا كعب عن

الجمل وتقدم بكتاب الله عز وجل فادعهم إليه ودفعت إليه مصحفاً ، وواجه كعب الجموع يحمل المصحف ويدعو إلى وضع الحرب والركون إلى الصلح ، ولكن دعاة الفتنة كانوا يخشون أن يقع الصلح ، وكان فى مقدمة الساعين إلى الفتنة السبئية فلما استقبلهم كعب بالمصحف رشقوه بالسهام حتى قتل والمصحف بين يديه ، وضاعت جهوده فى سبيل السلام

وفقدت الأمة الإسلامية رجلا نظراؤه فى الرجال قليل عقلا وقضاء وشجاعة وسداد رأى رحمه الله وتجاوز عنه وكان ذلك عام ٣٦ هـ .

ولما أبصر به الإمام بين القتلى عبر عن أسفه بقوله : زعمتم إنما خرج معهم السفهاء وهذا الحبر قد ترون .

مراجع :

(١) تاريخ الطبرى جـ٤ تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم .

(٢) طبقات ابن سعد جـ٧ القسم الأول ص٦٥ نشر التحرير .

(٣) أسد الغابة جـ٤ ص ٤٧٩ ، ٤٨ نشر دار الشعب .

(٤) الطرق الحكمية فى السياسة الشرعية ص ٢٩ المؤسسة العربية للطباعة والنشر .

(٥) البداية والنهاية جـ٧ ص ٢٣٠ — ٢٤٠ .

(٢)
شريح بن الحارث الكندى

نسبه :

أحد العباقرة الذين أنجبتهم الأمة العربية ، ومن أوتوا البديهة الحاضرة ووهبوا العقل الراشد ، والحكم الفصل ، عنح النظرة الصائبة والفراسة الملهمة لاستخراج الحق من بين ثنايا الباطل ، والنفاذ إلى الحقيقة من خلال ما يغطيها من غيوم .

ذلك هو القاضى شريح بن الحارث بن قيس بن الجهم بن معاوية بن عامر ابن الرائش بن الحارث بن معاوية بن ثور ، أبو أمية الكندى إحدى قبائل اليمن ، ويقال إنه من أولاد الفرس الذين استقووا باليمن ، أدرك النبى صلى الله عليه وسلم ، ولكن لقاءه له لم يتفق عليه المؤرخون ، وقد روى ابن حجر فى تهذيب التهذيب بسنده إلى ميسره بن القاضى شريح عن أبيه أنه جاء إلى النبى صلى الله عليه وسلم ، فأسلم ثم قال : يارسول الله إن لى أهل بيت ذوى عدد باليمن ، فقال له : جىء بهم فجاء بهم إلى النبى صلى الله علية وسلم[١] إلا أن ابن حجر يعقب على هذا الخبر بما ينبىء عن شكه فى وقوعه حينما يسنده إلى مصدره الذى رواه عنه بقوله : رواه ابن السكن من هذا الوجه فى كتاب الصحابة ، وقال لم أجد له ما يدل على لقيه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا هذا والله أعلم بصحته[٢] .

---

(١) تهذيب التهذيب ج ٤ ص ٣٢٨ . ويقول ابن عساكر فجاء بهم والنبى قد قبض - تهذيب تاريخ دمشق ج ٦ ص ١٠٢ .

(٢) تهذيب التهذيب ج ٤ ص ٣٢٨ .

وسئل مرة : ممن أنت ؟

فأجاب : ممن أنعم الله عليهم بالإسلام ، وعدادى فى كندة[١] .

ويقول عنه ابن عساكر : أنه كان شاعراً راجزاً قائفاً ، وكان كوسجا ليس له لحية ، وكان أحسن فقهاء الكوفة[٢] .

صفاته :

وروى ابن خلكان عن ابن عبد البر قوله : وكان شاعراً محسناً ، وهو أحد السادات الطلس ، وهم أربعة : عبد الله بن الزبير ، وقيس بن سعد ابن عبادة ، والأحنف بن قيس الذى يضرب به المثل فى الحلم ، والقاضى شريح المذكور ، والأطلس الذى لا شعر فى وجهه[٣] وكان شاعراً راجزاً قائفاً ، كوسجا ليس له لحيه وكان أحسن فقهاء الكوفة .

وهو كوفى تابعى ثقة ، وقال ابن سيرين كان تاجراً ، وكان صاحب مزاح ومعاريض ويقال إنه تعلم العلم من معاذ .

شيوخه :

وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم مرسلا ، وعن طائفة من الصحابة منهم عمر وعلى ، وابن مسعود ، وعروة البارقى ، وعبد الرحمن بن أبى بكر وزيد بن ثابت .

تلاميذه :

وتلقى عنه طائفة من أعلام التابعين ونابهى الفقهاء وساداتهم فى زمنهم ،

---

(١) تهذيب تاريخ ابن عساكر جـ ٦ ص ٣٠٤ .

(٢) تهذيب تاريخ ابن عساكر جـ ٦ ص ٣٠٤ .

(٣) وفيات الأعيان جـ ٦ ص ٢٥٥/٢٥٦ نشر الرفاعى وشذرات الذهب جـ ١ ص ٧٥ نشر مكتبة القدس .

ومنهم الشعبي، وأبو وائل ، وقيس بن أبى حازم . وابن سيرين ، وعبدالعزيز ابن رفيع وابن أبى صفية ، ومجاهد بن جبير ، وعطاء بن السائب ، وأنس ابن سيرين وإبراهيم النخعى ، وكان شريح مهيباً وقوراً حتى أن الشعبي فى علمه وفضله ومعرفته الواسعة لما سئل : عمن كان يروى شريح ؟

قال : كان أعظم فى أنفسنا أن نسأله عمن كان يروى[١] .

متابعته للأثر ونفوره من القياس :

وكان شريح مع ماهو عليه من مقدرة ذهنية فذة يلتزم الآثار ولا يسمح لنفسه أن يستعمل القياس ، ويرى فى اتباع الآثار حفظاً من الزلل ، فقد سأله يوماً رجل من مراد : مادية الأصابع ؟ فقال عشر ، عشر .

فقال الرجل: ياسبحان الله ، سواء هاتان ؟! وجمع بين الخنصر والإبهام، فقال شريح : يا سبحان الله أسواء أذنك ويدك ؟

فقال : الأذن ، يواريها الشعر والكمة والعمامة فيها نصف الدية ، وفى اليد نصف الدية ، ويحك إن السنة سبقت قياسكم ، فاتبع ولا تبتدع ، فإنك لن تضل ما أخذت بالأثر[٢] وكان يقول : أنا أقتص الأثر فما وجدته فيه حدثتكم به[٣] وكان يقول : سمعنا الأحاديث قبل أن تلطخ .

---

(١) ابن عسكر ج ٦ ص ٣١٠ .
(٢) ابن عساكر ج ١ ص ٣١١ .
(٣) ابن عساكر ج ٦ ص ٣١١ :

نسكه ودينه :

وكان شريح رجلا ناسكاً قانتاً كثير الصلاة والعبادة . وفى هذا يروى الشعبي فيقول : خرجت فى العيد مع مسروق وشريح وكان من أكثر أهل الكوفة صلاة ، فلم يصل قبلها ولا بعدها .

وكان يدخل فى يوم الجمعة بيتاً يخلو فيه لايدرى الناس ما يصنع فيه(١) .

وفاته :

وعاش شريح على ما قيل مائة وعشرين سنة فى أرجح الأقوال وبعضهم ينزل بها إلى مائة وخمس وبعضهم يعلو بها إلى مائة وثمانين ، وتاريخ وفاته مختلف فيه فقيل توفى سنة ثمان وسبعين ، وقيل ست وثمانين ، قضى من حياته خمسا وسبعين سنة قاضياً بين الناس وهى أطول مدة عرفتها لرجل تولى القضاء ، وقد ولاه عمر القضاء وعمره أربعون سنة كما يروى عن نفسه وظل قاضياً حتى استعفى من الحجاج قبل وفاته ، وقد التصق به شهرته بالقضاء حتى صار لفظ القاضى صفة مميزة له ، وفى خلال هذه الفترة الطويلة جرت له أحداث ونوادر يبدو فيها قدرته الفائقة على الوصول إلى القول الفصل فيما يعرض له من قضايا ، وقد ساعده على ذلك فكر صائب ونظر سديد ودراية واسعة وإحاطة بالسنة ودين عاصم من الزلل .

صبره على طلب العلم :

وقد سئل يوماً : بأى شىء أصبت هذا العلم ؟

---

(١) ابن عساكر جـ ٦ ص ٣١٠ .

فأجاب: بمفاوضة العلماء، آخذ منهم وأعطيهم[١].

وكان لا نظير له فى القضاء وفى هذا يقول الشعبى: كان شريح أعلم بالقضاء وكذلك قال غير الشعبى[٢].

تحريه الحق:

وقد تولى قضاء الكوفة والبصرة حتى لقب بقاضى المصريين. وكان شديد التحرى للحق لا يبالى غضب الناس أو رضوا حتى قال كلمته المشهورة: أصبحت وشطر الناس على غضاب[٣].

وكفل ابنه رجلا ففر، فحبسه، وكان يرسل إليه الطعام فى الحبس، ويرسل إليه القطيفة أو المرقعة، واستعدى رجل على رجل بينه وبين شريح نسب فأمر به فحبس، فلما قام ذهب الرجل يكلمه فأعرض عنه، وقال له: أنا لم أحبسك ولكن حبسك الحق.

وكان بعض أهله يسأله عن الشيء، فيقول: لا أرى شاهداً بغائب، اذهب حتى تجيء أنت وصاحبك على السواء، ل ندرى أيقضى لك أو عليك[٤].

---

(١) ابن عساكر جـ٦ ص ٣٠٤ — ٣٠٥
(٢) ابن عساكر جـ٦ ص ٣٤
(٣) ابن عساكر جـ٦ ص ٣٠٨
(٤) ابن عساكر جـ٦ ص ٣٠٨

رحلاته :

وقيل إنه خرج إلى المدينة ثم إلى العراق لأن أمه تزوجت بعد أبيه فاستحيا[١] وذهب إلى الشام زمن معاوية بن أبى سفيان ، وكانت له قصة مع قاضى دمشق أفحمه فيها ولما بلغ أمره إلى معاوية أمر أن يفرغ من أمره وأن تعجل عودته إلى العراق خشية أن يفسد عليه الناس .

مع قاضى معاوية :

وهذه هى القصة كما رواها ابن عساكر : قدم شريح الشام إلى قاض لمعاوية يطلب رجلا بحق له .

فقال القاضى لشريح : أرى حقك قديماً .

قال شريح : الحق أقدم منك ومنه .

فقال : إنى أظنك ظالما .

فقال : ما على ظنك رحلت من العراق .

قال : ما أظنك تقول الحق .

قال : لا إله إلا الله حق أو باطل .

فنمى الخبر إلى معاوية فقال : هذا شريح ، وأمر أن يفرغ من أمره ، ويرد إلى العراق[٢] .

حرصه على نزاهة القاضى :

ومن أمثلة تحريه للحق فى القضاء أنه كان فى مجلس الحكومة ، فدخل

---

(١) الأغانى ج ٢١ ص ٣٥

(٢) ابن عساكر ج ٦ ص ٣٠٤

عليه الأشعث بن قيس فقال : مرحباً وأهلا بشيخنا وسيدنا ، وأجلسه معه ، فبينما هو جالس عنده دخل رجل يتظلم من الأشعث .

فقال له شريح : قم فاجلس مجلس الخصم ، وكلم صاحبك .

فقال . بل أكلمه من مجلسى .

فقال له : لتقومن أو لآمرن من يقيمك .

فقال له الأشعث : ثم ما ارتفعت .

قال : رأيت ذلك ضرك ؟

قال : لا.

قال : فأراك تعرف نعمة الله على غيرك وتجهلها على نفسك .

نصحه لأصدقائه :

وكان من كمال مروءته يعرف حق أصدقائه عليه ويرى أن إسداء النصح لهم حق لا بد أن يؤديه ، فقد حدث الشيبانى قال : أخبرنى صديق له قال سمعنى شريح ، وأنا أشتكى بعض ما غمنى إلى صديق ، فأخذ بيدى وقال: يا ابن أخى إياك والشكوى إلى غير الله ، فإنه لا يخلو من تشكو له أن يكون صديقاً أو عدوا . أما الصديق فتحزنه ولا ينفعك ، وأما العدو فيشمت بك ، انظر إلى عينى هذه — وأشار إلى إحدى عينيه — فوالله ما أبصرت بها شخصياً ولا صديقاً منذ خمس عشرة سنة ، وما أخبرت بها أحدا إلى هذه الغاية ، أما سمعت قول العبد الصالح : « إنما أشكو بثى وحزنى إلى الله » ، فاجعله مشكاك ومحزنك عند كل نائبة تنوبك فإنه أكرم مسئول ، وأقرب مدعو[1].

---

(١) العقد الفريد جـ١ ص ٧١/٧٢ تحقيق الأستاذ محمد سعيد العريان .

ويتجلى من خلال هذه النصيحة مدى الحرص على مرضاة الله، وتعويد النفس ألا تقف فى مذلة الشكوى إلا بين يديه ، وما أغلاها من نصيحه ساقها شريح وضرب المثل فى الصبر على البلاء من نفسه ، وما يعلم بما نزل به أحد منذ خمسة عشر عاما ، وقد فعل ذلك فقط لئلا تتعود النفس ذل الخضوع إلا للخالق سبحانه، و لئلا يسىء الصديق ويسر العدو .

ومن الأمثلة التى تبرز مدى التوكل على الله والثقة فى قضائه والخضوع لأمره ما كتب به مرة إلى صديق له هرب من الكوفة إلى النجف فراراً من داء الطاعون الذى اجتاح الكوفة :

« أما بعد ، فإن الموضع الذى هربت منه لم يسق إلى أجلك تمامه ، ولم يسلبه أيامه : وإن الموضع الذى صرت إليه لا يعى من لا يعجزه طلب ، ولا يفوته هرب ، وأنا وإياك على بساط فلك ، والنجف من ذى قدرة لقريب[1] .

وكان شديد الحرص على مراعاة حقوق الناس من حوله وحق المجتمع عليه ، فلا يسمح بأن يصيبهم أذى أو ضرر ، ومن ذلك أنه كان يأمر أهله اذا مات لأحد من أقاربه سنور أن يرمى به فى ساحة داره ، ولا يلقى به فى الشارع خشية أن يصيب الناس اذى ، وكان يمنع أهله أن يجعلوا منفذا للماء من داره الى الطريق أيضاً .

وكان من حرصه على كرامة الإنسانية فى الإنسان يقول :

من سأل حاجة فقدعرض نفسه على الرق فإن قضاها المسئول منه استعبده بها ، وان رده عنها رجع كلاهما ذليلا هذا بذل البخل ، وذاك بذل الرد .

---

(١) العقد الفريد جـ٢ ص ١٤٣

وجاءه يوماً رجل يطلب قرضاً فطلب إليه أن يذهب إلى بيته ويشترى له ما يريد[١] كل ذلك حرصاً منه على ألا يشعر بذل الحاجة . .

وكان محاسباً لنفسه شديد التواضع بعيداً عن الغرور أو التعالى . . فقد سأله رجل يوماً قائلا : كيف أصبحت ؟

فقال : أصبحت طويلا أملى ، قصيراً أجلى ، سيئاً عملى[٢] .

زواجه :

روى الشعبى عن شريح قصة زواجه ، وهو فى هذه القصة يعطينا صورة واضحة عن البيت السعيد والزوجة الصالحة وما يتركه هذا من أثر طيب على حياة الأسرة ذاتها ورب الأسرة ذاته ، ونظراً لأن القصة مشوقة مفيدة فإنا سنأتى بها كما رواها صاحب الأغانى ، وإن كانت قد جاءت فى عدة كتب أخرى مع اختلاف طفيف فى مساق الألفاظ ، قال الشعبى ، قال لى شريح : يا شعبى ، عليكم بنساء بنى تميم ، فإنهن النساء .

قلت : وكيف ذاك ؟

قال : انصرفت من جنازة ذات يوم ظهراً ، فمررت بدور بنى تميم ، وإذا امرأة جالسة فى سقيفة على وسادة ، وتجاهها جارية رود[٣] جالسة على وسادة فاستسقيت ، فقالت لى : أى الشراب أعجب إليك : النبيذ أم اللبن أم الماء ؟

قلت : أى ذلك تيسر عليكم .

---

(١) عيون الأخبار ج ١٩٠

(٢) العقد الفريد ج ٢ ص ٢٥٩

(٣) هى التى بلغت ولها ذؤابة على ظهرها .

قالت : اسقوا الرجل لبناً ، فإنى أخاله عربياً .

فلما شربت نظرت إلى الجارية فأعجبتنى .

فقلت من هذه ؟

قالت : ابنتى .

قلت : وممن ؟

قالت : زينب بنت جرير ، إحدى نساء بنى تميم . ثم إحدى نساء بنى حنظلة ثم إحدى نساء بنى طهية .

قلت : أفارغة أم مشغولة ؟

قالت : بل فارغة .

قلت : أتزوجينها ؟

قالت : نعم إن كنت كفئاً ولها عم فاقصده .

فانصرفت فامتنعت من القافلة ، فأرسلت إلى إخوانى القراء الأشراف : مسروق بن الأجدع ، والمسيب بن نجية ، وسليمان بن صرد الخزاعى ، وخالد بن عرفطة العذرى ، وعروة بن المغيرة بن شعبة ، وأبى بردة بن أبى موسى فوافيت معهم صلاة العصر ، فإذا عمها جالس .

فقال : أبا أمية ، حاجتك ؟

قلت : إليك .

قال : وما هى ؟

قلت : ذكرت لى بنت أخيك زينب بنت جرير .

قال : ما بها عنك رغبة ، ولا بك عنها مقصر ، وإنك لنهزة . .

فتكلمت فحمدت الله جل ذكره . وصليت على النبي صلى الله عليه وسلم ، وذكرت حاجتي فرد الرجل على ، وزوجني وبارك القوم لى ، ثم نهضنا ، فما بلغت منزلى حتى ندمت .

فقلت : تزوجت إلى أغلظ العرب وأجفاها ، فهممت بطلاقها ثم قلت : أجمعها إلى فإن رأيت ما أحب وإلا طلقتها . فأقمت أياماً ثم أقبل نساؤها يهادينها فلما أجلست فى البيت أخذت بناحيتها فبركت ، وأخلى لى البيت .

فقلت يا هذه إن من السنة إذا دخلت المرأة على الرجل أن يصلى ركعتين، وتصلى ركعتين ويسألا الله خير ليلتهما ، ويتعوذا بالله من شرها ، فقمت أصلى ثم التفت فإذا هى خلفى فصليت ثم التفت فإذا هى على فراشها ، فمددت يدى .

فقالت لى : على رسلك .

فقلت : إحدى الدواهى منيت بها .

فقالت : إن الحمد لله أحمده وأستعينه ، إنى امرأة غريبة ، ولا والله ، ما سرت مسيراً قط أشد على منه ، وأنت رجل غريب ، لا أعرف أخلاقك، فحدثنى بما تحب فآتيه وما تكره فأنزجر عنه .

فقلت : الحمد لله وصلى الله على محمد ، قدمت خير مقدم ، قدمت على أهل دار زوجك سيد رجالهم ، وأنت سيدة نسائهم ، أحب كذا وأكره كذا . .

قالت : أخبرنى عن أختانك[1] ، أتحب أن يزوروك ؟

فقلت : إنى رجل قاض ، وما أحب أن تملونى ، قال فبت بأنعم ليلة ،

(١) الأختان : جمع ختن ، وختن الرجل صهره .

وأقمت عندها ثلاثا ، ثم خرجت إلى مجلس القضاء ، فكنت لا أرى يوماً إلا هو أفضل من الذى قبله ، حتى إذا كان عند رأس الحول دخلت منزلى ، فإذا عجوز تأمر وتنهى .

قلت : يازينب ، من هذه ؟

فقالت : أمى ، فلانة .

قلت : حياك الله بالسلام .

قالت : أبا أمية ، كيف أنت وحالك ؟

قلت : بخير ، أحمد الله .

قالت : أبا أمية ، كيف زوجك ؟

قلت : كخير امرأة .

قالت : إن المرأة لا ترى فى حال أسوأ خلقاً منها فى حالين ، إذا حظيت عند زوجها وإذا ولدت غلاما فإن رابك منها ريب فالسوط ، فإن الرجال والله ما حازت إلى بيوتها شراً من الورهاء المتدللة .

قلت : أشهد أنها ابنتك ، قد كفيتنا الرياضة ، وأحسنت الأدب . .

قال : فكانت فى كل حول تأتينا فتذكر هذا ثم تنصرف .

قال شريح : فما غضبت عليها قط إلا مرة كنت لها ظالما ، وذاك أنى كنت أمام قومى فسمعت الإقامة ، وقد ركعت ركعتى الفجر ، فأبصرت عقربا ، فعجلت عن قتلها ، فأكفأت عليها الإناء ، فلما كنت عند الباب قلت : يا زينب لا تحركى الإناء حتى أجىء ، فعجلت فحركت الإناء فضربتها العقرب ، فجئت فإذا هى تلوى . .

فقلت : مالك ؟

قالت : لسعتنى العقرب .

فلو رأيتنى ، يا شعبى وأنا أعرك أصبعها بالماء والملح ، وأقرأ عليها المعوذتين وفاتحة الكتاب ، وكان لى يا شعبى جار يقال له ميسرة بن جرير فكان لا يزال يضرب امرأته .

فقلت :

رأيت رجالا يضربون نساءهم	فشلت يمينى حين أضرب زينبا
أأضربها فى غير جرم أتت به	إلى فما عذرى إذا كنت مذنبا
فتاة تزين الحلى إذا هى حليت	كأن بفيها المسك خالط محلبا

يا شعبى ، فوددت أنى قاسمتها عيشى[١] .

وقد ملأت حياة شريح سعادة وبهجة وأحالت بيته إلى نعيم دائم يجد فى ظلاله الأمن والهدوء والراحة من عناء النهار ومتاعب المتخاصمين حتى انعكس ذلك على مشاعره فكان يحب أهل زوجه لأجلها ، ويزور من تزور ويخاصم من تخاصم تعبيراً عن الوفاء لحبها وتقديراً لحسن معاشرتها والقيام بحقوق زوجها حتى أنه قال شعراً يترجم به عن مشاعره نحوها وأحاسيسه ، وتداول الشعر على ألسنة المغنيين ينشدونه فى المحافل والمجالس وقد أورده صاحب الأغانى ونسبه إلى شريح وفيه يقول :

إذا زينب زارها أهلها	حشدت وأكرمت زوارها

---

(١) الأغانى جـ ١٦ ص ٣٦ ، ٣٧ ، ٣٨ طبع ساسى .
وردت القصة فى العقد الفريد جـ ٧ ص ١٠١ ، ١٠٢ ، ١٠٣
وتهذيب تاريخ ابن عساكر جـ ٦ ص ٣١٣ ، ٣١٤

وإن هى زارتهم ، زرتهم   وإن لم أجد لى هوى دارها
فسلمى لمن سالمت زينب   وحربى لمن أشعلت نارها
وما زلت أرعى لها عهدها   ولم أتبع ساعة عارها[1]

وهكذا قضى شريح هذه الحياة السعيدة الهانئة فأفاضت عليه من نعيمها وهيأت له مجالا من الراحة النفسية يلجأ فيها إلى التأمل ، فكانت حياته حافلة بالنظر الصائب والحكم العدل والقول السديد ، فلم تعكر حياته منغصات زوجة حمقاء ، ولم تؤرق ليلة بعوائها وضجيجها ، ولم تظلم يومه بانفعالاتها المحمومة وجشعها القاتل وقلبها الحقود ودينها الناقص ..

وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم حين يقول :

« ما رزق المرء بعد تقوى الله خيراً من زوجة صالحة إن نظر إليها سرته . وإن أمرها أطاعته . وإن غاب عنها حفظته فى عرضه وماله » .

طائفة من أخباره :

وبلغ من نفاذ حجته أن قال عنه الشعبي : ما نعلم أحداً انتصف من شريح إلا أعرابياً أتاه فى خصومة ، فجعل يكلمه ويمسه بيده .

فقال له شريح : إن لسانك أطول من يدك .

فقال الأعرابى : أسامرى أنت فلا تمس ؟

فلما أراد أن يقوم قال له شريح : إنى لم أرد هذا بسوء .

---

(١) الأغانى جـ ١٦ ص ٣٤ طبع أساسى .

فقال الأعرابى : فلا أجرمته إليك[١] .

وكان يؤم قومه ، فبلغهم أنه تكلم فى أمر حجر بن الأدبر بشىء .

فقالوا له : لا تؤمنا ، واعتزل .

فقال لهم : وأجمعتم على هذا ؟

قالوا : نعم . .

فاعتزل[٢] .

وأتاه رجل يخاصم امرأته فقال : إن هذه حديدة الركبة ، سريعة الوثبة ، تؤذى الجار ، وتشتم البعل ، وتقول الهجر .

فقال شريح : سبحان الله ، دون هذا الكلام عافاك الله .

فقالت المرأة : والله أيها الحاكم ، هو صفر المزود ، قليل التعهد ، إن جاع ضرع وإن شبع استشبع .

فقال شريح : قوما عنى فى غير حفظ الله[٣] .

وكان من عادته إذا جاع أو غضب قام ولم يقض بين أحد .

وقال يحيى بن معين : رأيت على ظاهر كفه قرحة ، فقلت : ما هذه ؟

فقال : بما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير .

وقيل له : ألا تريها الطبيب ، فقال : هو الذى أخرجها .

---

(١) و (٢) و (٣) تهذيب ابن عساكر ج ٦ ص ٣١٠

شريح الأب :

كان شريح مع مسئولياته فى القضاء وإمامة قومه ومنزلته بين الناس لا ينسى أنه أب عليه أن يرعى بنيه ويحسن تربيتهم ويقوم على تأديبهم ، فإذا لم تدع له مسئوليات القضاء وقتاً يقوم فيه بهذا الواجب مباشرة فلا بأس من أن يختار لأبنائه مؤدبين ومعلمين يتولونهم ويقومون بشئون ثقافتهم وتعليمهم، وليكن هو بعد ذلك ملاحظاً وموجهاً ، ومعيناً للمؤدب على أن يضع بين يديه مالا يستطيع أن يصل إليه وحده . .

وهكذا كان ، فقد روى أنه افتقد ابناً له بعث فى طلبه ، فلما جاءه الرسول به سأله :

أين أصبته ؟

قال : وجدته يهارش الكلاب .

قال شريح لابنه : أصليت ؟

فأجاب : لا . .

فقال للرسول : خذ بيده فاذهب به المؤدب وقل له :

ترك الصلاة لأكلب يلهو بها	طلب الهراش مع الخبيث الأنجس
فإذا أتاك فعضه بملامة	أو عظه موعظة الأديب الكيس . .
وإذا هممت بضربه فبدرة . .	فإذا ضربت بها ثلاثا فاحبس
فليأتينك عامداً بصحيفة	نكداء مثل صحيفة المتلمس
واعلم بأنك ما أتيت ، فنفسه	مع ما يجرعنى أعز الأنفس

---

(١) تهذيب تاريخ ابن عساكر جـ ٦ ص ٣١٢ ، ٣١٣ والعقد جـ ٢ ص ٢٦٠

في مجلس القضاء :

ماعرف تاريخ القضاء حتى الآن رجلا يقضي بين الناس مدى خمسة وسبعين عاماً إلا شريحاً ، ولذلك صار لفظ القاضي لقباً له . فكان يدعى شريحاً القاضي وقد ظل على قضاء الكوفة منذ أيام عمر بن الخطاب ، حتى استعفى من الحجاج أيام خلافة عبد الملك بن مروان ، وكان ذلك قبل وفاة شريح بعام . وقد روى النووي في تهذيب الأسماء واللغات عن ميسرة عن شريح قال :

وليت القضاء لعمر وعثمان وعلى ومعاوية ويزيد بن معاوية ، ولعبد الملك إلى أيام الحجاج فاستعفيت الحجاج[1] .

وقد عقب النووي على إيراد هذا الخبر بقوله : وكان له يوم استعفائه مائة وعشرون سنة وعاش بعد استعفائه سنة .

وظل كل أيامه قاضياً على الكوفة إلا سنة واحدة كان قاضياً على البصرة .

ويقول ابن المديني : أنه ولى قضاء البصرة سبع سنين في زمن زياد ، وولى الكوفة ثلاثاً وخمسين سنة[2] .

ومقتضى هذا الخبر أن زمن قضائه كان ستين سنة لا خمساً وسبعين .

وقد جاء في بعض المصادر أنه ولى القضاء وهو في سن الأربعين .

ومعروف أنه مات وله مائة وعشرون سنة ، فيكون مقدار مكثه في القضاء ثمانين سنة إلا أننا لو استبعدنا منها الفترة التي ظل فيها معطلا عن القضاء أيام غلبة المختار وابن الزبير إذا اعتبرناها ثلاث سنوات فقط حسبما جاء في

---

(١) و (٢) تهذيب الأسماء واللغات ج ١ ص ١٤٣ ، طبع المنيرية .

بعض الروايات يكون ماتبقى بعد ذلك خمساً وسبعين سنة قضاها فى مجالس الحكومة قاضياً .. وهذا ما نقله النووى عن ابن قتيبة فى المعارف ، والشيخ أبى إسحاق فى طبقاته[1] .

وقد روى النووى أن عمر استقضاه سنة اثنتين وعشرين .

ونقل عند الحديث عن تاريخ وفاته رواية تقول: أنه توفى عام تسعة وتسعين، ولو قمنا بعملية طرح لكان قد ظل فى القضاء سبعاً وسبعين سنة .

وأيما كان الأمر فقد قام بالقضاء هذه الفترة الطويلة التى يختلف تقديرها مابين الستين إلى السبع والسبعين .

كيف تولى القضاء :

ويروى الشعبى فى سبب توليه القضاء أن عمر رضى الله عنه أخذ فرساً من رجل على سوم ، فحمل عليه رجلا ، فعطب عنده ، فحاكمه صاحب الفرس .

فقال عمر : اجعل بينى وبينك رجلا .

فقال الرجل : إنى أرضى بشريح العراقى فتحاكما إليه .

فقال شريح لعمر : أخذته صحيحاً سليما فأنت له ضامن حتى ترده صحيحاً سليما .

فأعجب عمر حكمه : فبعثه قاضياً على الكوفة[2] .

ووضع له عمر دستوراً للقضاء يسير عليه ، ووجهه إلى مصادر الحكم التى ينبغى على القاضى المسلم أن يستلهمها حينما تعرض له قضية من القضايا ،

(١) تهذيب الأسماء واللغات ج ١ ص ١٤٣

(٢) تهذيب تاريخ ابن عساكر ج ٦ ص ٣٠٥

وكان عمر بهذا التوجيه قد وضع الأسس ووجه القضاء إلى الينابيع التى ينبغى أن يستقضى منها الحكم فى الإسلام .

وهذه الوصية أو الدستور قد أوردته الكتب بروايات مختلفة اللفظ إلا أنها متحدة المعنى ، وإن كان بعضها أبين من بعض وسنختار بعضاً من هذه الروايات التى جاء بها الحافظ بن عساكر فى تاريخ دمشق وأكمل هذه الروايات فيما أعتقد أن عمر كتب إليه :

« إذا جاءك أمر فى كتاب الله فاقض به ولا تلفتنك عنه الرجال ، فإن أتاك ما ليس فى كتاب الله فانظر فى سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فاقض بها ، فإذا جاءك ما ليس فى كتاب الله، وليس فيه سنة من رسول الله صلى الله عليه وسلم فانظر ما اجتمع عليه الناس فخذ به ، فإن جاء ما ليس فى كتاب الله ، ولم تكن فيه سنة من رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يتكلم فيه أحد قبلك فاختر أى الأمرين شئت ، إن شئت أن تجتهد رأيك ثم تقدم فتقدم . وإن شئت أن تتأخر فتأخر ولا أرى التأخر إلا خيراً لك »[1] .

وجاء عند البيهقى بدلا من قوله : وإن شئت أن تتأخر...الخ قوله : « وإن شئت أن تؤامرنى فآمرنى ، ولا أرى مؤامرتك إياى إلا خيراً لك والسلام »[2] .

أما رواية الشعبى فتقول : « اقض بما استبان لك من كتاب الله ، فإن لم تعلم كتاب الله كله فاقض بما استبان لك من قضاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإن لم تعلم كل أقضية رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فاقض بما استبان لك

---

(١) و (٢) تهذيب تاريخ ابن عساكر ج ٦ ص ٣٠٥

من أمر أئمة المهتدين ، فإن لم تعلم كل ماقضت به الأئمة المهتدون فاجتهد رأيك واستشر أهل العلم والصلاح[١] .

وقد تأكدت مكانته فى القضاء بالشهادة التى منحها إياه أمير المؤمنين على ابن أبى طالب حينما قال لأصحابه : اجمعوا لى القراء[٢] فاجتمعوا فى رحبة المسجد فقال لهم : إنى أوشك أن أفارقكم ، ثم جعل يسألهم ، ويقول لهم ماتقولون فى كذا ؟

ويقولون له : يا أمير المؤمنين ، كذا وكذا ؟

فيخبرهم حتى ارتفع النهار وتصدعوا ونفد ما عندهم ، وشريح جاث على ركبتيه لا يسأله عن شىء إلا قال كذا وكذا . . ثم قال لشريح : أنت أقضى العرب[٣] .

واستمر شريح فى القضاء منذ ذلك التاريخ حتى قبل وفاته بعام .

وقد روى الشعبى أن عمر رزقه مائة درهم على القضاء[٤] .

وجرى له خلال ذلك أحداث ومواقف كشفت عن مدى تحريه للحق وحرصه على العدل ونزاهة القضاء ، لايلويه على ذلك قرابة أو سلطان أو جاه وقد مر بنا ما فعل بابنه وأقاربه .

وإليك هذا الموقف مع أمير المؤمنين على بن أبى طالب :

خرج على رضوان الله عليه إلى السوق فرأى درعاً له مع ذمى يهودى

---

(١) تهذيب تاريخ ابن عساكر ج ٦ ص ٣٠٥

(٢) المقصود بالقراء هنا الفقهاء .

(٣) و (٤) تهذيب تاريخ ابن عساكر ج ٦ ص ٣٠٥

أو نصرانى يبيعها ، فلما تعرف عليها قال : هذه درعى وأنكر الذمى فانجها إلى القاضى باقتراح من على أو من الذمى وكان القاضى شريحاً .

قال شريح ما تشاء يا أمير المؤمنين ؟

قال علي : هذه درعى سقطت من جمل لى أورق والتقطها هذا اليهودى .

قال شريح : ما تقول يا يهودى ؟

قال : درعى وفى يدى .

قال شريح : صدقت ، والله ياأمير المؤمنين إنها لدرعك ، ولكن لا بد من شاهدين .

فدعا قنبراً مولاه والحسن بن على وشهدا أنها درعه . .

قال شريح : أما شهادة مولاك فقد أخذناها ، وأما شهادة ابنك لك فلا نجيزها . .

فقال على : ثكلتك أمك ، أما سمعت عمر بن الخطاب يقول :

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة» .

قال : اللهم نعم . .

قال : أفلا تجيز شهادة سيد شباب أهل الجنة ؟ والله لأوجهنك إلى بانقيا تقضى بين أهلها أربعين يوما . ثم قال لليهودى : خذ الدرع . .

فقال اليهودى : أمير المؤمنين جاء معى إلى قاضى المسلمين ، فقضى عليه ورضى ، صدقت والله ياأمير المؤمنين إنها لدرعك سقطت عن جمل لك التقطتها ، أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله .

فقال علي : الدرع لك ، وهذا الفرس لك ، وفرض له في تسعمائة ثم لم يزل معه حتى قتل يوم صفين[١] .

بين شريح وزياد :

لما ولي زياد العراق اصطحب معه شريحاً إلى البصرة وقال له : إن حكمت بشيء ترى غيره أقرب إلى الحق منه فأعلمنيه ، وكان زياد يحكم فلايرد شريح عليه فيقول زياد لشريح : ما ترى في هذا الحكم ؟ حتى أتاه رجل من الأنصار فقال :

إني قدمت البصرة والخطط موجودة فأردت أن أختلط لي .

فقال لي بنو عمي وقد اختطوا ونزلوا : أين تخرج عنا ؟ أقم معنا واختط عندنا ، فوسعوا لي فاتخذت فيهم داراً وتزوجت ، ثم نزغ الشيطان بيننا ، فقالوا لي : اخرج عنا . فقال زياد : ليس ذلك لكم منعتموه أن يختط والخطط موجودة ، وفي أيديكم فضل فأعطيتموه ، حتى إذا ضاقت الخطط أخرجتموه وأردتم الإضرار به ، لا يخرج من منزله .

فقال شريح : يا مستعير القدر ارددها . .

فقال زياد : يا مستعير القدر احبسها ولا تردها . .

قال ابن سيرين : القضاء بما قال شريح ، وقول زياد حسن[٢] .

وعلى الرغم من كراهيته لزياد وعدم رضاه عن سياسته في الناس القائمة

---

(١) حلية الأولياء ج ٢ ص ١٣٩ ، ١٤٠ ، تهذيب تاريخ ابن عساكر ج ٦ ص ٣٠٦ ، وابن خلكان ج ٦ ص ١٥٧ نشر الرفاعي .

(٢) العقد الفريد ج ٥ ص ٢٦٥

على العسف والظلم والبطش والاستبداد فإنه لم يستسغ لنفسه أن يكتمه النصيحة حينما طلبها منه لما أصيب فى ذراعه وأشار عليه الأطباء بقطعها ..

وروى أن زياداً كتب إلى معاوية يقول : ضبطت لك العراق بشمالى ، ويمينى فارغة لطاعتك ، فولنى الحجاز ، فبلغ ذلك عبد الله بن عمر ، وكان مقيما بمكة،فقال : اللهم اشغل يمين زياد ، فأصابه الطاعون أو الأكلة فى يمينه ، فجمع الأطباء ، فأشاروا بقطعها ، فاستشار شريحاً ، فقال : أكره لك إن كانت لك مدة تعيش بلا يمين ، وإن كان قد دنا أجلك أن تلقى ربك مقطوع اليد ، فإذا قال لك . لم قطعتها قلت : بغضاً للقائك وفراراً من قضائك . .

ومات زياد من يومه ، فلام الناس شريحاً حيث نصح له ، لبغضهم لزياد . فقال : استشارنى والمستشار مؤتمن ، وإلا لوددت أنه قطع يده يوما ، ورجله يوما ، وسائر جسده يوما يوما[1] .

ويضرب شريح بموقفه هذا المثل على صدق النصيحة والإخلاص فى الرأى سواء كان طالبه حبيباً أو بغيضاً . صديقاً أو عدواً لأن الأمر أمر دين وخلق وسلوك . .

ومن يلتزم بمبدأ أخلاقى لا يحيد عنه حسب الحب والبغض وكان معروفا عنه أنه يستعمل الكناية والتعريض والدعابة فى محاوراته بين الناس وإجاباته لأسئلتهم ، وكان يفهم عنه ذلك ، ذوو الذكاء والفطنة والعارفون بمنهجه وسبيله . .

---

(١) شذرات الذهب فى أخبار من ذهب لابن العماد الحنبلى ج ١ ص ٨٥، ٨٦ نشر مكتبة القدس ٣٥٠

المزاح مع التزام الحق :

ومن ذلك أنه دخل على زياد يزوره فى مرض موته ، فلما خرج بعث إليه مسروق بن الأجدع يسأله :

كيف تركت الأمير ؟

قال : تركته يأمر وينهى .

فقال مسروق : إن شريحا صاحب تعريض فاسألوه. فسألوه ، فقال : تركته يأمر بالوصية وينهى عن البكاء[1] .

وقد لازمت هذه الطبيعة شريحا حتى فى مجلس القضاء والفصل بين الناس، فكان لا يرى بأساً من استعمال الكناية والتعريض والدعابة فى رده ما دام لم يضع حقاً أو يظلم أحداً ، فقد دخل عليه يوماً عدى بن أرطاة فقال : أين أنت أصلحك الله ؟

قال : بينك وبين الحائط .

قال : اسمع منى .

قال : قل نسمع .

قال : إنى رجل من الشام .

قال : مكان سحيق .

قال : وتزوجت عندكم .

قال : بالرفاء والبنين .

قال : وولد لى غلام . .

(١) العقد الفريد ج ٢ ص ٢٨٩

قال : أيهنك الفارس .

قال : وأردت أن أرحلها .

قال : الرجل أحق بأهله ..

قال : وشرطت لها دارها ..

قال : الشرط أملك ..

قال : فاحكم الآن بيننا ..

قال : قد فعلت ..

قال : فعلى من حكمت ؟

قال : على ابن أمك.

قال : بشهادة من ؟

قال : بشهادة ابن أخت خالتك(١) .

ويريد شريح أنه أقر على نفسه فأصدر حكمه بمقتضى إقراره وهو حوار سريع يدل على عقل ثابت وذهن متفتح ، ورأى راجح ، يزن الأمور ويقدر حقائقها .

ومن هذا القبيل ماروه أبو نعيم : أن جدة وأماً تنازعا فى صبى وجاءا إلى شريح وعرضا قضيتهما شعراً فأجابهما شعراً أيضاً . وعلى الرغم من أن الشعر ضعيف يبدو عليه مسحة التلفيق إلا أننا لا نستطيع الحكم بنفى هذه الواقعة ، ولا بأس من أن نثبتها وما جرى فيها من حوار شعرى لنقدم

---

(١) العقد الفريد ج ٢ ص ٢١٧ ، ٢١٨

للقارىء لوناً من ألوان الخصومات الاجتماعية فى ذلك العصر وطريقة علاجها..

ولئن كان الشك ينتابنا فى إثبات السياق الذى عرضت به القضية إلا أن القضية نفسها لاشك فى وقوعها لأن مثل هذه المنازعات أمر مألوف الوقوع فى مجتمع ليس غريباً علينا خصائصه ومميزاته والقضية تقول :

جاءت جدة صبى وأمه يختصمان فيه إلى شريح كل واحدة تقول أنا أحق به ، فقالت الجدة :

أبا أميـة أتينـاك وأنت المرء نأتيه
أتاك ابن وأماه وكلتـانا تفـديه
فـلو كنت تأيمت لمـا نازعتك فيه
تزوجت فهاتيـه ولا يذهب بك التيه

فقالت الأم :

ألا أيهـا القـاضى قد قالت لك الجده
قولا فاستمع منى ولا تنظرنى رده
تعز النفس عن ابنى وكبدى حملت كبده
فلما صار فى حجرى يتيما ضائعاً وحده
تزوجت رجـاء الخـ ير من يكفينى فقده
ومن يظهرنى الود ومن يحسن لى رفده

فقال شريح رحمه الله :

قد سمع القاضي ما قلتما , وعلى القاضي جهد ان عقل
قال للجدة بيني بالصبي وخذي ابنك من ذات العلل
إنها لو صبرت كان لها قبل دعواها يبغيها البدل

وقضى به للجدة . .(١)

طائفة من أقضياته :

قال أبو عمرو الشيباني : كنت عند شريح فأتاه قوم برجل عليه صك بخمسمائة درهم ديناً . فقالوا : إن مولى لنا مات وترك على هذا خمسمائة درهم ديناً ونحن وارثو مولانا . .

فقال له شريح : ما تقول ؟

فقال : كان أخي حراً مولى لهؤلاء . . وكان موسراً ، وأنا عبد لقوم آخرين ، وكان أعطاني هذه الدراهم أنتفع بها ، فمات أخي وترك مالا كثيراً ورثه هؤلاء. فقلت لهم : دعوا لي هذه الدراهم فإني مقيل .

فكلمهم شريح وقال لهم : لاعليكم أن تدعوا له هذه الدراهم ، وسائر مال أخيه لكم ، وقد ذكر عيله . . فأبوا .

وقالوا : خذ لنا بحقنا . .

فقال لهم شريح : اتقوا الله ، وافعلوا . .

فأبوا وقالوا خذ لنا بحقنا . .

فقال له شريح : ادفعها لهم ، فإنك عبد لاميراث لك . .

---

(١) الحلية جـ ٤ ص ١٣٤ ، ١٣٥

فقاموا من بين يديه على ذلك .

قال أبو عمرو : فلما رأيت جزعه وشدة همه قلت له : ويحك ، ذكرت أنك معيل ، فما عيالك .. ؟

قال : زوجة وأولاد ذكور وإناث .

قلت له : فما زوجتك حرة أو أمة ؟

فقال : حرة .

فرجعت إلى شريح ، فقلت : يا أبا أمية ، ألا ترى مايقول هذا الرجل ؟

قال : وما يقول ؟

قلت : يقول لى أولاد أحرار من امرأة حرة .

فقال : ردهم إلى ، فرددتهم ، فأعاد الكلام ، فاعترفوا به .

وقالوا : نعم له أولاد أحرار .

فقال : ولد حر من امرأة حرة ، فابن الأخ الحر أولى بالميراث منكم ، والله لا تبرحوا حتى تعطوه مافى أيديكم من ميراث أخيه ، فانتزع ذلك منهم ودفعه إليه(١) .

وجاء رجل فقال : إن امرأتى توفيت ولم تترك ولداً ، فمالى من ميراثها ؟

فقال : النصف .

---

(١) تهذيب تاريخ ابن عساكر جـ ٦ ص ٣٠٩

فمضى ، ثم عاد ، ومعه خصوم له فى هذه المسألة ، فإذا هى من عشرة أسهم يجب له منها ثلاثة أسهم[١] .

فكان الرجل بعد ذلك يقول : انظروا إلى قاضيكم سألته فأعطانى النصف ، وحاكمت إليه فما أعطانى النصف ولا الثلث .

وكان شريح يقول له : يا عدو نفسه إذا رأيتنى ذكرت حكما جائراً . وإذا رأيتك ذكرت رجلا فاجراً يظهر الشكوى ويكتم حقيقة القضاء[٢] .

من نوادره :

عرض ناقة على السوق ليبيعها ، فسامه بها أعرابى .

فقال له : كيف سيرها ؟

فقال : خذ الزمام بشمالك والسوط بيمينك وعليك الطواف .

وفى رواية أنه سأله : ما هذا ؟

قال : ناقة تمشى على أربع ..

قال : أتبيعها ؟

قال : لذلك أخرجتها .

قال : كيف حملها ؟

قال : الحائط احمل عليه ما شئت . .

---

(١) وتفسير ذلك أنها تركت زوجها وأمها وأختها لأمها وأبيها وأختيها لأمها .

(٢) تهذيب تاريخ ابن عساكر جـ ٦ ص ٣٠٩

قال : كيف حلبها ؟

قال : قرب الحلب وشأنك .

قال : كيف الوطاء ؟

قال : افرش ونم .

قال : كم الثمن ؟

قال : ثلاثمائة درهم .

فاشتراها منه ونقده الثمن . ثم قال له شريح : إن عرضت إليك حاجة فسل عن أبي أمية في مسجد الكوفة .

فلما مضى بها فإذا هي بطيئة السير ، قليلة الحلب ، فأتاه فإذا هو في مجلس القضاء .

فقال له : لم أر فيها شيئاً مما وصفت فأدناه وأفهمه ما قال له ، ثم أقاله[1] .

ويروى الشعبي أنه جاءته امرأة تشكو وتبكى بكاء حاراً ، فقال له : يا أبا أمية ما أظن إلا أنها مظلومة . فقال شريح : وما يدريك يا أبا عمرو ، إن إخوة يوسف جاءوا أباهم عشاء يبكون[2] .

خرج شريح إلى مكة ، فشيعه قوم ، مضى معه بعضهم إلى النجف ، ثم ودعه وانصرف ، ومضى معه قوم آخرون إلى أبعد من ذلك . فلما أرادوا أن يودعوه قال :

---

(١) و (٢) تهذيب تاريخ ابن عساكر ج ٦ ص ٣١٢

أما أصحاب النجف فقد قضينا حقهم بالطعام ، وأما أنتم فأغنيكم ، ورفع عقيرته وغنى . .

إذا زينب زارها أهلها حشدت وأكرمت زوارها
وإن هى زارتهم زرتها وإن لم يكن لى هوى دارها(١)

وكان يضرب به المثل فى الحيلة والدهاء ، حتى قيل : شريح أدهى من ثعلب وقد سئل الشعبى عن قصة هذا المثل فقال : خرج شريح أيام الطاعون إلى النجف فكان إذا قام يصلى جاءه ثعلب فوقف تجاهه ، وأخذ يشغله عن صلاته ، فلما أعياه أمره نزع قميصه فجعله على قصبة ، وأخرج كمه ، وجعل قلنسوته ، وعمامته عليه ووقف خلف ذلك الشبح ، فأقبل الثعلب فوقف على عادته ، فتحيل له شريح حتى أخذه بغتة ، فلذلك قالوا عنه « أدهى من ثعلب »(٢) .

وسئل عن الجراد فقال : قبح الله الجرادة فيها خلقة سبع جبابرة رأسها رأس فرس ، وعنقها عنق ثور ، وصدرها صدر أسد ، وجناحها جناح نسر ، ورجلاها رجلا جمل ، وذنبها ذنب حية ، وبطنها بطن عقرب(٣) .

وكان شريح يدرك مدى المسئولية الملقاة على عاتقه ، ويعرف أن منصب القضاء منصب شديد الخطر لأنه يتعلق بحقوق الناس ، وإدراكا منه لهذا الموقف الدقيق كان إذا جلس للقضاء يقول : سيعلم الظالمون حظ من نقصوا ،

---

(١) عيون الأخبار جـ ٤ ص ٩١ طبع دار الكتب .
(٢) و (٣) تهذيب تاريخ ابن عساكر جـ ٦ ص ٣١٢

أن الظالم ينتظر العقاب وأن المظلوم ينتظر النصر ، ونظر يوماً إلى رجل يقوم على رأسه فرآه يضحك ، فقال له : ما يضحكك وأنت ترانى أتقلب بين الجنة والنار ، وكان يقول : أصبحت وشطر الناس على غضاب[1] .

وكان إذا غضب أو جاع قام ولم يقض بين أحد . .

وقال الشعبى : رأيت على ظهر كفه قرحة ، فقلت له ما هذه ؟

فقال : بما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير .

وقيل له : ألا تريها الطبيب ؟

فقال : هو الذى أخرجها . .

واشتكى رجله فطلاها بعسل ، وقعد فى الشمس .. فقيل له : لو أريتها الطبيب ، فقال : قد فعلت ووعد خيراً[2] .

وكان يقول : ما أصيب عبد بمصيبة إلا كان لله عليه فيها ثلاث نعم : أن لا تكون فى دينه ، وألا تكون أعظم مما كانت ، وأنها لا بد كائنة فقد كانت ، وإنى لأصاب بالمصيبة فأحمد الله عليها أربع مرات : أحمده إذ لم تكن منها ، وأحمده إذ رزقنى الصبر عليها ، وأحمده إذ وفقنى للاسترجاع لما أرجو فيه من الثواب ، وأحمده إذ لم يجعلها فى دينى . .

وظل شريح على القضاء حتى طال به العمر ولقيه رجل فى الطريق فقال له : أبا أمية قضيت والله بجور . .

---

(١) تهذيب تاريخ ابن عساكر ج ٦ ص ٣٠٨

(٢) تهذيب تاريخ ابن عساكر ج ٦ ص ٣١١

قال : وكيف ؟ ويحك.

قال . كبرت سنك ، واختلط عقلك ، وارتشى ابنك .

فقال شريح : لا جرم ، لا يقولها أحد بعدك ، ثم أتى الحجاج ، فقال : والله لا أقضى بين اثنين .

قال: والله لا أعفيك أو تبغيني رجلا .

فقال شريح : عليك بالعفيف الشريف ابن بردة بن موسى[1] .

وتوفى بعدها بعام تقريباً وفى تاريخ وفاته خلاف : قيل سنة ثمانين هجرية ، وقيل ست وسبعين وقيل ثمان وسبعين ، وقيل اثنتين وثمانين ، وقيل ثلاث وتسعين . وقيل سبع أو تسع وتسعين ، وأكثر الروايات على أن وفاته كانت سنة ثمان وسبعين عن مائة وعشرين سنة .

وقال يحيى بن قيس الكندى : أوصى شريح أن يصلى عليه فى الجبانة ، وأن لا يؤذن به أحد ، وأن لا تتبعه صائحة ، وأن لا يجعل على قبره تابوت، وأن يسرع به السير ، وأن يلحد له[2] .

وهكذا انطوت هذه الحياة العريضة . وخبا ذلك العقل الوقاد ، وهدأ هذا القلب الحى ، ودفنت هـذه التجارب التى عركت الحياة واكتسبت من خبرتها وبلت خيرها شرها وحلوها ومرها . .

---

(١) تهذيب تاريخ ابن عساكر جـ ٦ ص ٣١٠

(٢) تهذيب تاريخ ابن عساكر جـ ٦ ص ٣١٥

رحم الله شريحاً فقد كان المثل الحى للقاضى المسلم ، والحكم العدل ، والمؤمن الذى يخشى الله ويرقبه فى كل صغير وكبير من أموره ، لأنه كان يعرف أن حقوق الناس منوطة بحكمه وقضائه ، جزاه الله خيراً عن الحق الذى عاش له والعدل الذى أرسى قواعده واستهان بكل شىء من عرض الدنيا فى سبيله .

قاضى البصرة إياس بن معاوية

سنة ١٢٢ هـ

قاضى البصرة إياس بن معاوية بن قرة أبو واثلة المزنى أحد عجائب الدنيا والمشهور بالذكاء النادر والفراسة الصادقة .

وكان يزين هـذه الفراسة ويحلى ذلك الذكاء تقى وعفاف وفقه ودين وخشية لله ومراعاة لحدوده ومراقبة لأوامره ونواهيه .

وهو تابعى ولجده صحبة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد لقى من الصحابة أنس بن مالك .

وكانت تضرب الأمثال بذكاء إياس فى الشعر والنثر ، فهذا أبو تمام يمدح أحد الأمراء فيقول :

إقدام عمرو ، فى سماحة حاتم   فى حلم أحنف ، فى ذكاء إياس

ولهـذا البيت قصة طريفة تدل على حضور بديهة أبى تمام وقدرته على ارتجال المعنى البديع والتشبيه الدقيق بدون إعداد أو تفكر — أما القصة فهى أن أحد الحضور اعترض على أبى تمام بعد إنشاده البيت المذكور قائلا : ما زدت على أن شبهت الأمير بأعراب أجلاف ، فأنشد أبو تمام على البديهة :

لا تنكروا ضربى له من دونه   مثلا شروداً فى الندا والباس

فالله قـد ضرب الأقل لنوره   مثلا من المشكاة والنبراس

ولما أخذت القصيدة من أبي تمام لم يوجد بها البيتان المذكوران .

وكذلك أشار الحريرى فى مقاماته إلى فراسة إياس بقوله :

« فإذا ألمعيتى ألمعية ابن عباس وفراستى فراسة إياس » .

فما هى مظاهر تلك الفراسة التى أخذت بألباب الناس على مر العصور ، وهل هى حقيقة أم أن أيدى الخيال قد جرت فيها بالزيادة والإضافة جرياً على ولوع الناس بالتهويل وحب المبالغة ..

والحقيقة أن فراسة ونفاذ بصيرته إياس قد بدت مخايلها منذ الطفولة وأخذت تنمو مع الأيام ويظهر آثارها كلما خالط الناس وخالطوه وعرفوا من أموره ما لم يكونوا يعرفون .

وقد كان معاوية أبو إياس من المشتغلين بالحديث والعلم والتلقى عن صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقد روى عنه أنه قال : لقيت ثلاثين صحابياً وممن أخذ عنه الحديث شعبة بن الحجاج بن الورد الأزدى الذى يقول عنه الشافعى : لولا شعبة ما عرف الحديث بالعراق[1] ، وهذا يعنى أن إياساً نشأ فى بيت يعنى بالعلم وتحصيله والاهتمام به وقد عاصر شيوخ البصرة الكبار وكان لهم نظيراً فى العلم والفقه والتقى والورع من أمثال الحسن وابن سيرين وسواهما ، وقد اعترف أنه تعلم من الحسن ، وكان يسأل ابن سيرين .

نجابة مبكرة :

يروى الأستاذ أحمد نجاتى أن إياساً فى صغره كان ضعيفاً دقيقاً دميما وكان له أخ أشد حركة منه وأكثر قوة فكان أبوه معاوية يقدم أخاه عليه

---

(١) العبر جـ ١ ص ٢٣٤

لما يرى من حركته ونشاطه ، فلفت هذا التفريق فى المعاملة بين الأخوين نظر إياس ، ولا شك أنه آلمه وآذاه وأحب أن يلفت نظر أبيه بطريقة تكشف عن مواهبه وذكائه فقال لأبيه يوماً : يا أبت ، أنت تقدم أخى علىّ ، وسأضرب لك مثلى ومثله ، هو مثل الفروج حين تنفلق عنه البيضة يخرج كاسياً بنفسه يلتقط ويستخفه الناس وكلما كبر انتقص حتى إذا تم فصار دجاجة لم يصلح إلا للذبح .

وأنا مثل فرخ الحمام حين تنفلق عنه البيضة عن ساقط لا يقدر على حركة ، فأبواه يغذوانه حتى يقوى وينبت ريشه ثم يحسن بعد ذلك ، ويطير ، فيجد به الناس ويكرمونه ، ويرسل من المواضع البعيدة فيجىء قيصان كذلك ويكرم .

فقال له أبوه : لقد أحسنت المثل ، وقدمه على أخيه فوجد عنده أحسن مما كان يظن فيه[1] .

ولا شك أن إياساً قال لأبيه هذا المثل بعد ما بدأ يعقل الأمور ويزن الأشياء ويميز بين الصحيح والسقيم ، وقد أخذت تتوالى هذه الظواهر الدالة على النجابة المبكرة عند إياس حتى أن عبد الملك خافه على رعيته من أهل الشام فأمر قاضيه أن يحقق له ما يريد حتى يعود سريعاً إلى العراق ، ومن هذا نأخذ أن إياساً لم يكن مقيما بالعراق كل أيامه بل كان يرحل هنا وهناك إما لطلب العلم وإما للاتصال بذوى النباهة والشأن وإما لقضاء بعض الأمور التى يطلب إليه قضاؤها سواء كانت أموراً خاصة به وبأسرته أو كانت

---

(١) الأستاذ أحمد نجاتى تعليقه على وفيات الأعيان ج ٢ ص ٢٧٧ نشر الرفاعى .

أموراً عامة . ولا أدل على أن هـذه الرحلات كانت لأمور تتعلق بمطالب الحياة من حضوره أمام قاضى دمشق هو وشيخ كبير فى خصومة بينهما ويبدو أن القاضى كان يعرف الشيخ الذى جاء إياس يخاصمه من قبل ، فلما حضرا بجلس القضاء بدأ إياس الحديث مبيناً حقه لدى الشيخ فأنكر القاضى على إياس مبادرته بالكلام قائلا له : كيف تتقدمه بالكلام وهو شيخ كبير .

فأجاب إياس : إن كان كبيراً فالحق أكبر منه . .

فقال له القاضى أسكت .

فقال إياس : فمن يتكلم بحجتى إذا سكت .

فقال القاضى : ما أحسبك تنطق بحق فى مجلسى هذا حتى تقوم .

فقال إياس : أشهد أن لا إله إلا الله ، حق أو باطل .

وهناك رواية تقول إن القاضى قال : ما أظنك إلا ظالماً له .

فأجاب إياس : ما على ظن القاضى خرجت من منزلى .

فلم يملك القاضى إزاء هـذا المنطق الواضح والحجة البينة إلا أن يغادر مجلس القضاء ويذهب إلى الخليفة عبد الملك ابن مروان ويخبره بخبر الغلام .

فيقول عبد الملك : اقض حاجته ، وأخرجه الساعة من دمشق لا يفسد على الناس[1] .

---

(١) البداية والنهاية جـ ٩ ص ٢٣٤ تهذيب تاريخ دمشق جـ ٣ ص ١٧٥

ويبدو أن إياساً فى أيام صباه قد استقر فترة بالشام وأنه كان يتردد على بعض الكتاب هناك ليتعلم مع الصبيان بعضهم من المسلمين وبعضهم من النصارى ، وقد كان معلم الكتاب فيما يبدو نصرانياً ، وثار نقاش بين تلاميذ الكتاب من النصارى وبين التلاميذ المسلمين حول أهل الجنة وماروى بشأنهم أنهم لا يحدثون فأخذ أطفال النصارى يسخرون من المسلمين بإثارة هذا الأمر متسائلين أين يذهب ما يأكلون فتصدى إياس لإسكات هذا التحدى موجهاً السؤال إلى المعلم الذى بدا أنه يأخذ جانب النصارى فقال له : ألست تزعم أن فى الطعام ما ينصرف فى غذاء البدن ؟

قال : بلى .

فأجاب : فما ينكر أن يجعل الله طعام أهل الجنة كله غذاء لأبدانهم ؟

فأجابه معلمه : ما أنت إلا شيطان[1] .

وأخذ عود إياس يشتد ومعرفته تتسع وشواهد فراسته وذكائه تسير من بلد إلى بلد حتى صار واحداً من رجال عصره علماً وحكمة وفقهاً وزهداً وورعاً وتقى ويزيد عليهم بما وهب من الذكاء النادر والفراسة التى لا تخطىء .

وكانت رحلاته قد تعددت ووصل بعلمه وفضله إلى مجالسة الخلفاء وخاصة أهل التقى والورع منهم ، فقد رحل إلى دمشق بعد هذه الرحلة مرتين فى أيام عمر بن عبد العزيز ، أما الأولى منهما فقد نسب ابن عساكر إليه أنه قال : كنا عند عمر بن عبد العزيز ، فذكر عنده الحياء ، فقالوا : الحياء من الدين ،

---

(١) البداية والنهاية ج ٩ ص ٣٣٥ ، تهذيب تاريخ دمشق ج ٣ ص ١٧٧

فقال عمر : بل هو الإيمان كله ؛ قال : قلت يا أمير المؤمنين ، حدثنى أبى عن جدى قرة المزنى أنه قال : كنا عند النبى صلى الله عليه وسلم ، فذكر عنده الحياء ، فقالوا : يا رسول الله الحياء من الدين ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن الحياء والعفاف والعى عى اللسان لا عى القلب ، والعمل من الإيمان ، وإنهن يزدن فى الآخرة وينقصن من الدنيا ، وما يزدن فى الآخرة أكثر مما ينقصن من الدنيا ، وإن الشح والفحش والبذاء من النفاق ، وإنهن ينقصن من الآخرة ويزدن فى الدنيا ، وما ينقصن من الآخرة أكثر مما يزدن فى الدنيا .

قال إياس فحدثت به عمر بن عبد العزيز ، فأمرنى فأمليته عليه وكتبه بخطه ، ثم صلى الظهر والعصر ، وإن الورقة فى كفه يضمها إعجاباً بها[1] .

أما رحلته الأخيرة فستتحدث عنها بعد ذلك .

بين إياس وابن شبرمة :

ويبدو أن شهرة إياس كانت تسبقه فى أى مكان يحل فيه فتحدثنا كتب التاريخ أنه سافر إلى واسط ، فانتشر خبر قدومه بين أهلها وأخذوا يقول بعضهم لبعض قدم البصرى وأتاه ابن شبرمة القاضى بمسائل قد أعدها له ، ولما جلس بين يديه قال له : أتأذن لى أن أسألك ؟

فأجاب إياس : ما ارتبت بك حتى استأذنتنى ، إنى لا أعيب القائل ، ولا يؤذينى الجليس ، فسل ، ثم إنه سأله - كما يروى المؤرخون - عن بضع وسبعين مسألة ، فما اختلفا إلا فى ثلاث أو أربع مسائل رده فيها إياس إلى قوله .

---

(١) تهذيب تاريخ دمشق ج ٣ ص ١٧٥

ثم عقب إياس قائلا : ياابن شبرمة ، هل قرأت القرآن ؟

فأجاب ابن شبرمة : نعم ، من أوله إلى آخره .

قال إياس : فهل قرأت « اليوم أكملت لكم دينكم ، وأتممت عليكم نعمتى »[1] .

قال : نعم ، وما قبلها وما بعدها .

قال إياس : فهل وجدته أبقى لآل شبرمة شيئاً ينظرون فيه .

قال : لا .

فقال له إياس : إن للنسك فروعاً ، فذكر الصوم والصلاة والحج والجهاد ، ثم قال : وإنى لأعلمك تعلقت من النسك بشىء أحسن من شىء وفى يدك النظر فى الرأى[2] .

وعلى الرغم من أن الجملة الأخيرة غير واضحة المعنى إذ يبدو فى تركيبها خللا فإنه يمكن الاعتقاد أن إياساً كان يرى اتباع الأثر ويعيب الأخذ بالرأى على عادة كبار التابعين من أمثال شريح والشعبى ، ولعلنا نفهم هذا جلياً من قوله لابن شبرمة : بعد سؤاله عن قراءة القرآن : هل وجدته أبقى لآل شبرمة شيئاً ينظرون فيه .

( ) سورة المائدة آية

(٢) تهذيب تاريخ ابن عساكر جـ ٣ ص ١٧٦ ، ١٧٧ . البداية والنهاية جـ ٩ ص ٣٣٥ ورواية البداية مختصرة .

بين إياس وغيلان الدمشقى

كان القول فى القدر قد بدأ يظهر بين عدد من المشتغلين بالعلم بين المسلمين وقد بدت بوادر هذا الاتجاه حتى فى عصر النبى ﷺ ولكن التقوى كانت تحجز الناس عن التمالى فيه وقيل إنه جاء رجل إلى عمر بن الخطاب فسأله عن شيء من القدر فعلاه بالدرة حتى قال الرجل لقد ذهب ما فى رأسى يا أمير المؤمنين .

وأول ما روى فى هذا الباب مفصلا ذلك الذى ينسب إلى على بن أبى طالب رضى الله عنه أن رجلا سأله : ما تقول فى القدر ؟

قال : ويحك أخبرنى عن رحمة الله ، أكانت قبل طاعة العباد ؟

فقال الرجل : نعم .

قال على : أسلم صاحبكم وقد كان كافراً .

فقال الرجل : أليس بالمشيئة الأولى التى أنشأنى بها أقوم وأقعد ، وأقبض وأبسط .

قال على : إنك بعد فى المشيئة .

أما إنى أسألك عن ثلاث فإن قلت فى واحدة منها : لا ، كفرت ، وإن قلت : نعم ، فأنت أنت .

فمد القوم أعناقهم ليسمعوا ما يقول .

فقال له على رضى الله عنه : أخبرنى عنك ، أخلقك الله كما شئت أو كما شاء ؟

قال الرجل : بل كما شاء ؟

قال على : فخلقك الله لما شئت أو لما شاء ؟

قال : بل لما شاء .

قال : فيوم القيامة تأتيه بما شئت أو بما شاء ؟

قال : بل بما شاء .

قال على : قم فلا مشيئة لك[1] .

وقد خاض الناس فى هذه المقالة أيام التابعين وكان لها دعاة فى العراق والشام من أمثال قتادة فى العراق وغيلان فى الشام إلا أن العلماء وقفوا من هذه الدعوة وقوف الكاره وشددوا النكير على القائلين بها ، وإن ظل الخوض فيها يغرى جماعات كثيرة بعرضها للبحث أمام أعلام العلماء من أمثال الحسن والشعبى ومحمد بن المنكدر وسواهم وقد أثر كلام عن سادة العلماء فى ذلك العصر يعيبون فيه القدرية وما يقولونه .

ولا بأس أن نورد هنا ما رد به محمد بن المنكدر على جماعة من القدرية جاءوا يحاجونه فى معرض الدعاء . روى صاحب العقد قال : أتى قوم من أهل القدر محمد بن المنكدر فقالوا له . أنت الذى تقول : إن الله يعذب الخلق على ما قدر عليهم ؟

فصرف وجهه عنهم ولم يجبهم .

فقالوا له : أصلحك الله ، إن كنت لا تجيبنا فلا تحرمنا من بركة دعائك فقال : اللهم لا تردنا بعقوبتك ، ولا تمكر بنا فى خلقك ، ولا تؤاخذنا

---

(١) العقد الفريد جـ ٢ ص ٢٠٢ ، ٢٠٣

بتقصيرنا عن رضاك ، قليل أعمالنا تقبل ، وعظيم خطايانا تغفر ، أنت الله الذى لم يكن شىء قبلك ، ولا يكون شىء بعدك ، ولى الأشياء ، ترفع بالهدى من تشاء ، لا من أحسن استغنى عن عونك ، ولا من أساء عليك ، ولا من استبد بشىء من حكومتك وقدرتك ، فكيف لنا بالمغفرة وليست إلا فى يديك؟ وكيف لنا بالرحمة وليست إلا عندك ؟ ، يا حفيظ لا ينسى ، وقديم لا يبلى ، وحى لا يموت .

بك عرفناك ، وبك اهتدينا إليك ، ولولا أنت لم ندر ما أنت سبحانك وتعاليت .

فقال القوم : قد والله ، أخبر وما قصر[1] .

وأنت ترى أن ابن المنكدر قد ضمن دعاءه الرد على أهل القدر وقد وصل الخوض فى أمر القدر مجالس الخلفاء وأخذ دعاته يتناظرون فيه علناً أمامهم وكان يحمل لواء هذه الدعوة فى الشام غيلان الدمشقى . ما كان لرجل فى مكانة إياس أن يكون بعيداً عن حومة ذلك الصراع الفكرى الذى شغل الرأى العام ، وسنعرف مما دار بينه وبين غيلان أن عيلان كان يعرف أين يقف إياس من هذه القضية ، وأنه كان يدخل فى مناقشات كثيرة مع المنتسبين إلى هذه الدعوة فقد روى عنه أنه قال : ما خاصمت أحداً من أهل الأهواء بعقلى كله إلا القدرية ، فقلت لهم : أخبرونى عن الظلم ما هو ؟

قالوا : أخذ الإنسان ما ليس له .

فقلت لهم إن لله على كل شىء[2] .

---

(١) العقد الفريد ج ٢ ص ٢٠٠ .

(٢) تهذيب تاريخ ابن عساكر ج ٣ ص ١٧٧ ، العقد الفريد ج ٢ ص ٢٠٢ ، البداية والنهاية ج ٩ ص ٣٣٥ .

ولهذا ماكادت الظروف تجمع بين إياس وغيلان حتى أخذ كل منهما يؤيد ما يعتقده ويبرهن على صحته وقد كان هذا اللقاء بين الرجلين على مرين المرة الأولى مصادفة ومن غير قصد إذ اكتشف كل منهما صاحبه بمحض الصدفة ذلك أن إياساً كان بالشام وأراد أن يذهب إلى الحج فذهب المكارى وقال انظر لى إنسانا غريبا فإنى أريد أن أخرج سراً ، ولقى غيلان المكارى فطلب منه مثل ماطلب إياس فاكترى لهما المكارى إنسانا حسب طلبهما واستقلا راحلتهما كل فى جانب من الهودج ولا يعلم أحدهما بالآخر ، فلبثا فى المحمل ثلاثة أيام لا يسأل أحدهما الآخر وبعـــد الثالث سأله إياس : ياعبد الله من أنت ؟

فقال : أنا غيلان .

وسأل غيلان بدوره : من أنت ؟ فقال : أنا إياس .

فسأله غيلان مبتدراً : أى إياس ؟ أهذا من القدر ؟

فقال إياس : إن شئت سألتنى وإن شئت سألتك .

فقال له غيلان : تكلم .

فقال إياس : إن شئت أخبرتك بقول أهل الجنة ، وأهل النار ، والملائكة والشيطان ، وقول العرب فى أشعارها .

فقال له غيلان أخبرنى بها .

قال إياس : إن أهل الجنة يقولون حين دخولها : « الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله » .

وأهل النار يقولون حين دخولها : « ربنا غلبت علينا شقوتنا » .

وقالت الملائكة : « لا علم لنا إلا ما علمتنا » .

وقال الشيطان : « رب بما أغويتنى لأغوينهم » .

وقالت العرب فى أشعارها :

لا يمنعك الطار شيئاً أردته فقد خط بالأقلام ما أنت لاقيا (١)

ويلاحظ أن استشهاد إياس يؤكد أن الأمور جرت بتقدير الله لها ولقن انتهت هذه المناظرة بين الرجلين على هذا الوضع الذى لم يتبين الرأى العام نتيجتها وكيف أسكت إياس « غيلان » فإن هناك مناظرة أو مناظرات قد أخذت مكانها فى مجلس الخلافة وأمام الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز الذى كان له من العلم والمعرفة والعقل والحكمة والوقوف على أسرار التنزيل مالا يقل عما كان لدى قادة العلماء فى عصره

وقد رويت لنا وقائع هذه المناظرة أو المناظرات عن الأصمعى مرة وعن غيره مرة أخرى وكل طريق يورد لنا وقائع تختلف فى تفصيلاتها عن الأخرى وإن كان المضمون واحداً وهذا مايدعونا أن نقول إنه كان هناك أكثر من مناظرة بين إياس وغيلان فى مجلس عمر بن عبد العزيز .

ونرى أن نقدم كلتى الروايتين فإن إحداهما تكمل الأخرى أو إن شئت فقل إحداهما تفصيل لما أجملته الأخرى أما الأصمعى فيقول : إن إياسا اجتمع هو وغيلان عند عمر بن عبد العزيز .

فقال عمر : هذان مختلفان قد اجتمعا ، فتناظرا .

فقال إياس : يا أمير المؤمنين ، إن غيلان صاحب كلام وأنا صاحب اختصار ، فإما أن يسألنى ويختصر ، وإما أن أسأله وأختصر .

فقال غيلان : سل .

فقال إياس : أخبرنى ، ما أفضل شىء خلقه الله عز وجل .

---

(١) تهذيب تاريخ ابن عساكر ج ٣ ص ٧٧ البداية والنهاية ج ٩ ص ٣٣٦

فقال : العقل .

فقال إياس : أخبرنى عن العقل ، هل هو مقسوم أو مقتسم ؟

فأمسك غيلان

فقال إياس : أجب

فقال غيلان : لا جواب عندى .

قال إياس : قد تبين لك أمره ، يا أمير المؤمنين . إن الله تبارك وتعالى يهب العقول لمن يشاء ، فمن قسم له منها شيئاً ذاده عن المعصية ومن تركه تهور(١) .

أما غير الأصمعى فيروى أن إياساً وغيلاناً التقيا ـ وقد يكون هذا اللقاء فى حضرة عمر أو فى مجلس آخر وأغلب الظن أنه لقاء غير الأول

فقال إياس : أسألك أم تسألنى ؟

فقال غيلان : سل .

فقال إياس : أى شىء أفضل خلق الله ؟

فقال غيلان : العقل .

فقال إياس : أفمن شاء استكثر منه ومن شاء لم يستكثر ؟

فسكت غيلان ملياً ثم قال : سل عن غير هذا .

فقال له إياس : أخبرنى عن العلم ، أهو قبل العمل أو العمل قبله .

---

(١) تهذيب تاريخ ابن عساكر ج ٣ ص ١٧٧ / ١٧٨ . البداية والنهاية ج ٩ ص ٣٣٦ .

فقال غيلان : والله ، لا أجيبك فيها .

فقال له إياس : فدعها ; ولكن أخبرني عن الخلق ، هل خلقهم الله مختلفين أم مؤ لفين ؟

فنهض غيلان وهو يقول: والله لا جمعني وإياك مجلس أبداً .

ويبدو أن غيلاناً قد عجز عن مجاراة إياس ذلك أن إياساً قد أحكم تسديد السهام له فلم يدع له منفذاً ينفذ إليه ضيق عليه الخناق حتى إن الأصمعي يروى أن غيلاناً قال لعمر : أتوب إلى الله ولا أعود لهذه المقالة أبداً .

ومما يتصل بقدرته على الإقناع وإيراد الحجج المسكتة ما روى أن رجلا سأله عن النبيذ ، فقال هو حرام .

فقال الرجل : فأخبرني عن الماء . قال : حلال .

قال : فالكوب ؟ قال : حلال ، قال : فالتمر : قال حلال . قال : فما باله إذا اجتمع حرم ؟

فقال إياس : أرأيت لو رميتك بهذه الحفنة من التراب ، أتوجعك ؟

قال : لا .

قال : فهذه الحفنة من التبن ؟

قال : لا توجعني .

قال : فهذه الغرفة من الماء ؟

قال : لا توجعني شيئاً .

قال إياس : أفرأيت إذا خلطت هذا بهذا ، وهذا بهذا ، حتى صار طيناً ، ثم تركته حتى استحجر ، ثم رميتك ، أيوجعك ؟

قال : أي والله ويقتلني .

قال إياس : فكذلك هذا حين جمعت أخلاطه وخمرت حرم[1] .

فراسته :

كانت فراسة إياس قد اشتهرت حتى إن الناس كانوا يجلسون إليه يتعلمون منه الفراسة[2] ويردون عنه ما يشاهدونه منها ، وقد حفلت كتب الأخبار والأدب بكثير منها من ذلك ما روى أنه كان فى موضع لحدث به ما أوجب الخوف وهناك ثلاث نسوة لا يعرفهن ، فقال : هذه ينبغى أن تكون حاملا وهذه مرضعاً ، وهذه عذراء ، فلما بحث عن ذلك كان الأمر كما قال .

فسئل : من أين لك هذا ؟

فقال : عند الخوف لا يضع الإنسان يده إلا على أعزّ ما له ويخاف عليه ، ورأيت الحامل قد وضعت يدها على جوفها فاستدللت بذلك على حملها .

ورأيت المرضع قد وضعت يدها على ثديها فعلمت أنها مرضع والعذراء وضعت يدها على فرجها فعلمت أنها بكر[3] .

وكان يوماً جالساً بالمسجد فدخل من بابه ثلاث نسوة ، فقال : الأولى ثكلى ، والثانية حبلى ، والثالثة حائض ، فسئل عنهن فكن كما قال فقيل له

---

(١) تهذيب تاريخ ابن عساكر جـ٣ ص١٧٩ — ١٨٠ . البداية جـ ٩ ص ٣٢٦

(٢) البداية والنهاية جـ ٩ ص ٣٣٨ .

(٣) وفيات الأعيان نشر الدكتور الرفاعي جـ ٢ ص ٢٧٨ .

من أين علمت ذلك ؟ قال : رأيت الأولى تنظر إلى الأحداث وترد طرفا كليلا فعلمت أنها ثكلى .

ورأيت الثانية تمشي وتعتمد على وركها الأيسر فعلمت أنها حبلى .

ورأيت الثالثة تريد الدخول إلى المسجد وتتهيب فعلمت أنها حائض[1] .

وقال إبراهيم بن مرزوق كنا عند إياس قبل أن يصير قاضياً وكنا نكتب عنه الفراسة كما يكتب الحديث عن صاحب الحديث ، فبينما نحن كذلك إذ جاء رجل فجلس على شيء مرتفع بمربدالبصرة وجعل يترصدالطريق فبينما هو كذلك إذ نزل فاستقبل رجلا في وجهه ثم رجع إلى موضعه ، فقال إياس : قولوا في هذا الرجل ، فقالوا : ما نقول هو رجل طالب حاجة ، فقال لهم : هو رجل معلم صبيان ، وقد أبق[2] له غلام أعور فإن أردتم أن تستفهموه ذلك ، فقوموا إليه فاسألوه ، قال فقام إليه بعضنا ، فقال له : إنا نراك منذ اليوم ها هنا ، ألك حاجة نعينك على شيء منها ؟

فقال : لي غلام نساج كان يغل علينا ، وقد زاغ منذ أيام .

فقالوا : صف لنا غلامك . وصف لنا موضعك .

فقال : أما أنا فأعلم الصبيان بالأجرة ، وأما غلامي فصفته كذا وكذا وإحدى عينيه ذاهبة .

فرجعوا إلى إياس . وقيل له : كيف علمت أنه معلم صبيان ؟

فقال : رأيته جاء يطلب موضعاً يجلس فيه كما يجلس الحكام ، فعلمت

---

(١) تهذيب تاريخ ابن عساكر جـ ٢ ص ١٨٨ .

(٢) أبق : هرب .

أن له عادة فى الجلوس، فنظر إلى أرفع شىء يقدر عليه فجلس عليه ، فنظرت فى قدره فإذا ليس قدره قدر الملوك ، فقدرت فيمن اعتادنى جلوسه جلوس الملوك فلم أجدهم إلا المعلمين فعلمت أنه معلم صبيان فقيل له كيف علمت أنه أبق له غلام أعور ؟

فقال : إنى رأيته يترصد الطريق ، فبينما هو كذلك إذ نظر فاستقبل رجلا فعلمت أنه شبه بغلامه والرجل إحدى عينيه ذاهبة [(١)] وكان بمدينة واسط فنظر إلى آجر فقال : تحت هذه الآجرة دابة ، فنزعوا الآجرة فإذا تحتها حية مطوية ، فلما سألوه عن ذلك ، قال : إنى رأيت ما بين الآجرتين ثوبا من بين جميع تلك الرحبة فعلمت أن تحتها شيئاً يتنفس [(٢)] .

ونظر يوما إلى رجل ، فقال : هذا غريب ، وهو من أهل واسط ، وهو معلم يطلب عبداً أبق له ، فلما استوضح أصحابه الأمر وجدوه كما قال ، ولما سئل : من أين علمت ذلك ؟

قال رأيته يمشى ويلتفت فعلمت أنه غريب ، ورأيت على ثوبه حمرة قرية واسط ، فعلمت أنه من أهلها ، ورأيته يمر بالصبيان فيسلم عليهم ولا يسلم على الرجال فعلمت أنه معلم .

ورأيته إذا مر بذى هيئة لم يلتفت إليه ، وإذا مر بذى أسمال تأمله ، فعلمت أنه يطلب آبقاً [(٣)] .

---

(١) تهذيب تاريخ ابن عساكر جـ ٣ ص ١٨٤ ، ١٨٥ / البداية والنهاية جـ ٩ ص ٣٣٨ مع اختلاف فى الرواية .

(٢) وفيات الأعيان نشر الرفاعى جـ ٢ ص ٢٧٨

(٣) تهذيب تاريخ ابن عساكر جـ ٣ ص ١٨٤

وما روى عن إياس من هذا الباب كثير وحسبنا ما أوزوناه .

أخلاقه وبصره بالرجال :

كان إياس باراً بوالديه معظما لهما وليس أدل على ذلك من قول أبيه حينما سئل : كيف ابنك لك ؟ فقال : نعم الابن ، كفانى أمر دنياى ، وفرغنى لآخرتى[1] .

ولما ماتت أمه بكى ، فقيل له ما يبكيك ؟ فقال كان لى بابان من الجنة مفتوحان فأغلق أحدهما[2] .

وكان لا يسمح لأحد أن ينال من أحد فى مجلسه فقد روى سفيان بن حسين قال : كنت عند إياس ، وعنده رجل ، فتخوفت إن قمت من عنده أن يقع فى ، فـكثت حتى قام ، فلما قام ذكرته لإياس، فجعل ينظر فى وجهى ولا يقول شيئاً حتى فرغت ، ثم قال : هل غزوت السند ؟ فقلت : لا ، فقال : أفغزوت الهند ؟ فقلت : لا ، فقال . أفغزوت الروم ؟ ؟ قلت : لا ، فقال : قد سلم منك الديلم والسند والهند والروم ولم يسلم منك هذا ، وإنما هو أخوك[3] .

لقد ألقى إياس على الرجل درساً لا ينساه فى رعاية الحقوق ، والمحافظة على الحرمات ، وواجب الأخوة .

وكان راجح العقل سديد الرأى نافذ البصيرة حتى قال عقبة بن عمر المخزومى : ما رأيت عقول الناس إلا قريبا بعضها من بعض إلا ما كان من

---

(١) وفيات الأعيان ج ٣ ص ٢٧٧

(٢) تهذيب تاريخ ابن عساكر ج ٣ ص ١٨٥

(٣) » » » ج ٣ ص ١٧٨

عقل الحجاج بن يوسف وإياس بن معاوية فإن عقولها كانت ترجح على عقول الناس كثيراً ، وهذا الذى دعا ابن سيرين أن يقول عنه : إنه لفهم إنه لفهم .

وكان لماحا شديد اليقظة كيسا حسن التأنى إلى الأمور حتى قال عن نفسه لست خبأ وليس الخب يخدعنى ، وهذه الصفة فيه هى التى جعلته يكشف كثيراً من الحقائق التى تعرض له فى القضايا كما سنعرف فيما بعد وهى التى جعلته يتفادى عداوة رجل كالفرزدق حينما قدم له فى شهادة ، وهو عنده غير مقبول الشهادة ، ولكن الكياسة هنا مطلوبة وخير من يستعملها إياس فقال أجزنا شهادة الفرزدق فزيدونا شهوداً حتى خرج الفرزدق من عنده فرحا وهو يردد أجاز شهادتى .

ومثل هذه الكياسة كانت تعوز كثيراً من القضاة حينما يتعرضون لرجال مثل الفرزدق فكانوا يقعون فى حرج شديد ، فهذا سوار القاضى تقدم له السيد الحميرى فى شهادة ، بعد أن حاول أن يستعفى المشهود له قائلا له : أعفنى من الشهادة عند سوار ، وبذل له مالا فلم يعفه ، فلما تقدم إلى سوار فشهد ، فقال : ألست المعروف بالسيد ؟ قال : بلى ، قال : استغفر الله من ذنب تجرأت به على الشهادة عندى قم لا أرضى بك ، فقام مغضباً من مجلسه وقال يهجوه فى قصيدة أولها :

قم بنا يا صاح واربع بالمغانى الموحشات

ومنها :

يا أمين الله يا منصور يا خير الولاة
إن سوار بن عبد الله من شر القضاة
نعثلى جملى لكم غير موات
جده سارق عنز فجرة من فجرات

لرسول الله والقاذفه بالمنكرات
وأن من كان ينادى من وراء الحجرات
ياهناة أخرج إلينا إننا أهل صفات
مدحنا المدح ومن نرم يصب بالزفرات
فاكفنيه لاكفاه الله شر الطارقات[1]

فلما قرأها سوار وثب من مجلسه قاصداً أبا جعفر . وكان السيد قد سبقه إليه وأنشده .

قل للإمام الذى ينجى بطاعته يوم القيامة من بحبوحة النار
لاتستعن جزاك الله صالحة يا خير من دب فى حكم بسوار
لاتستعن بخبيث الرأى ذى صلف جم العيوب عظيم الكبر جبار
تضحى الخصوم لديه من تجبره لايرفعون إليه لحظ إبصار
تيها وكبرا ولولا مارفعت له من ضبعه كان عين الجائع العارى

ولما دخل سوار على المنصور تبسم وقال : أما بلغك خبر إياس إن معاوية حيث قبل شهادة الفرزدق واستزاد من الشهود ، فما أحوجك للتعرض للسيد ولسانه[2] .

وكان إياس عالماً بأخلاق الرجال وطبائعهم وما يمتاز به كل منهم عن سواه بدأ هذا فى أوضح صورة حينما جاء رجل يشاوره فى خصومة فقال له : إن أردت القضاء فعليك بعبد الملك بن يعلى فهو القاضى وإن أردت الفتيا فعليك بالحسن فهو معلمى ومعلم أبى ، وإن أردت الصلح فعليك بحميد الطويل ، وتدرى مايقول لك ، يقول لك : دع شيئاً من حقك وخذ شيئاً .

---

(١) الأغانى طبع ساس ج ٧ ص ١٦
(٢) الأغانى طبع ساس ج ٧ ص ١٣

وإن أردت الخصومة فعليك بصالح السدوسى وتدرى مايقول لك ؟ يقول لك : اجحد ما عليك ، وادع ماليس لك واستشهد الغيب[1] وكان إذا حل بمجلس استولى عليه ولم يدع لأحد معه مقالا لحلاوة منطقه وشدة إقناعه وغزارة معارفه يرى الأصمعى عن أبيه أنه قال رأيت فى بيت ثابت البنانى رجلا أحمر طويل الزراعين غليظ الثياب يلوث عمامته لوثا ، وقد غلب على الكلام فلا يتكلم معه أحد ، فأردت أن أسأل عنه حتى قال قائل : يا أبا واثلة فعرفت أنه إياس .

ولهذه الصفة فيه قال له ابن شبرمة : أنا وأنت لا نتفق ، أنت لاتشتهى أن تسكت وأنا لاأشتهى أن أسمع .

وأتى حلقة من حلق قريش فى مسجد دمشق فاستولى على المجالس ، ورأوه أمرد دميما باذ الهيئة قشفا فاستهانوا به فلما عرفوه اعتذروا له وقالوا الذنب مقسوم بيننا وبينك رأينا رجلا فى زى مسكين يكلمنا بكلام الملوك[2] .

وكان إذا ماتبين له وجه الصواب فى أمر أمضاه بدون تردد . وكان دائما ينشد :

أبى لى البلاء وأنى امرؤ إذا ما تبينت لم أرتب

ولقد قيل له : فيك أربع خصال : دمامة وكثرة كلام ، وإعجاب بنفسك ، وتعجيل بالقضاء .

قال : أما الدمامة فالأمر فيها إلى غيرى .

وأما الكلام فبصاب أتكلم أم بخطأ ؟

---

(١) تهذيب التهذيب ج ١ ص ٣٩٠

(٢) تعليق الاستاذ نجاتى على بن خلكان ج ٢ ص ٢٨٤

قالوا : بصواب .

قال : فالإكثار من الصواب أفضل :

وأما إعجابي بنفسي ، أفيعجبكم ماترون مني ؟

قالوا : نعم .

قال : فأنا أحق أن أعجب بنفسي .

وأما قولكم إنك تعجل بالقضاء ، فكم هذه ؟ وأشار بيده .

قالوا : خمسة .

قال : عجلتم ، ألا قلتم واحدة وأثنتين وثلاثة وأربعة وخمسة .

قالوا : أنما تعد شيئا عرفناه .

قال : فكيف أحبس شيئاً يتبين لي فيه الحكم[1] .

وقد روى صاحب تاريخ دمشق هذا النقد الموجه إلى إياس بصورة أخرى تختلف قليلا عما قدمنا ولابأس من إيرادها .

قيل لإياس لولا خصال فيك لكنت أنت الرجل .

فقال : وماهي ؟

قال : تقضي قبل أن تفهم . ولاتبالي من جالت ، ولاتبالي مالبست .

فقال للقائل . أما قولك أقضي قبل أن أفهم فأيهم أكثر : ثلاثة أم اثنان؟

قالو : لا بل ، ثلاثة .

فقال : ما أسرع مافهمت .

قال : ومن لا يفهم هذا ؟

---

(١) تعاليق الاستاذ نجاتي على وفيات الأعيان ج ٢ ص ٢٨٣/٢٨٤

قال إياس : كذلك أنا لا أقضى حتى أفهم .

وأما قولك إنى لا أبالى مع من جلست ، فلأن أجلس مع من يعرف لى قدرى أحب إلى من أن أجلس مع من لا يعرف لى قدرى .

وأما قولك إنى لا أبالى ما لبست ، فلأن ألبس ثوباً يقى نفسى أحب إلى من أن ألبس ثوباً أقيه بنفسى[1] .

ومن هذه الاعتراضات والإجابة عنها نفهم أن إياساً كان حاضر الجواب وأنه كان يجلس مع من يشاء صغيراً أو كبيراً ممن يعرف قدره .

وأنه كان لا يهتم بمظهره .

وكان صادق الحديث نفوراً من الكذب بعيداً عن التكلف فقد روى عنه أنه كان يقول : ما يسرنى أن أكذب كذبة لأقطع بها شيئاً من الدنيا أسأل عنه يوم القيامة وأن لى الدنيا بحذافيرها[2] .

وكان يقول امتحنت خصال الرجال فوجدت أشرفها صدق اللسان ، ومن عدى فضيلة الصدق فقد نجع بأكرم أخلاقه[3] .

وكان يحذر من التكلف ومن هذا قوله : إياك وما استبشع الناس من الكلام ، وعليك بما يعرف الناس من القضاء[4] .

---

(١) تهذيب تاريخ ابن عساكر ج ٣ ص ١٨١ ، البداية والنهاية ج ٩ ص ٣٣٦

(٢) تهذيب تاريخ ابن عساكر ج ٣ ص ١٧٧

(٣) و (٤) تهذيب تاريخ ابن عساكر ج ٣ ص١٧٩

ويقول : إياك والشاذ من العلم وإن قل ، فإنه مما يصيب صاحبه الذلة[١] .

وكان ينصاع للحق ويستجيب له حينما يتبين له وجه الصواب ولو أدى ذلك إلى إظهاره بمظهر المنهزم أمام مناظره وليس أدل على ذلك من الحادثة التى رواها عن نفسه حين قال : ما غلبنى أحد قط سوى رجل واحد ،وذلك أنى كنت فى مجلس القضاء بالبصرة ، فدخل على رجل شهد عندى أن البستان الفلانى (وذكر حدوده) هو ملك فلان .

فقلت له : كم عدد شجره ؟

فسكت ثم قال : منذ كم يحكم سيدنا القاضى فى هذا المجلس ؟

فقلت : منذ كذا .

فقال : كم عدد خشب سقفه ؟

فقلت له : الحق معك وأجزت شهادته[٢] .

وكان لا يأنف من أن يسأل العلماء إذا ما غم عليه أمر فى القضاء .

قال أيوب : كنت أسمع عن إياس قضاء يشبه قضاء شريح ، فأخبرنى إياس بعد ذلك قال : كنت أبعث خالداً الحذاء إلى محمد بن سيرين أسأله عن كثير من مسائل القضاء[٣] .

---

(١) تهذيب تاريخ ابن عساكر جـ ٣ ص ١٧٩

(٢) وفيات الأعيان جـ ٢ نشر الرفاعى ص ٢٨٩ ، ٢٩٠

(٣) تهذيب تاريخ ابن عساكر جـ ٣ ص ١٨١ ، ١٨٢

وكان يعرف مواطن العيب من نفسه ولا ينكرها ولهذا كان يقول : من لم يعرف عيب نفسه فهو أحمق .

قيل له : فما عيبك ؟

قال : كثرة الكلام .

وقد أجمعت كتب التراجم التى تناولت حياة إياس على أنه كان ثقة عاقلا فطناً عفيفاً فقيهاً ألمعى الذكاء .

وإليك ما كتبه ابن خلكان عنه : اللسن البليغ ، والألمعى المصيب ، والمعدود مثلا فى الذكاء والفطنة ، ورأساً لأهل الفصاحة والرجاحة ، وكان صادق الظن ، لطيفاً فى الأمور ، مشهوراً بفرط الذكاء ، وبه تضرب الأمثال[1] .

ويقول بعد ذلك : وكان أحد العقلاء الفضلاء الدهاة[2] .

بعض ما أثر عنه من أقوال حكيمة :

وقد أثر عن إياس أقوال تدل على معرفته بأحوال الناس والمجتمعات وفهمه العميق للنزعات البشرية .

فمن ذلك قوله : لابد للناس من ثلاثة ، لابد لهم ممن يؤمن سبلهم ، ويختار لحكمهم حتى يعتدل الحكم فيهم ، ويقيم لهم الثغور التى بينهم وبين عدوهم ،

---

(١) وفيات الأعيان جـ ٢ ص ٢٧٦

(٢) وفيات الأعيان جـ ٢ ص ٢٧٧

فإن هذه الأشياء إذا قام بها السلطان احتمل الناس ماسوى ذلك من أثرة السلطان وكل ما يكرهون»[١] .

وقال ربيعة قال لى إياس : كل ما بنى على غير أساس فهو هباء ، وكل ديانة أسست على غير ورع فهى هباء .

وقيل له ماالمروءة ؟ فقال : أما فى بلدك وحيث تعرف فالتقوى . وأما حيث لا تعرف فاللباس .

وسأله رجل فقال : ياأبا واثلة ، حتى متى يتوالد الناس . . ويموتون ؟

فقال لجلسائه : أجيبوه ، فلم يكن عندهم جواب .

فقال إياس : حتى تتكامل العدتان عدة أهل الجنة وعدة أهل النار[١].

ومر عليه رجلان عرج عليه أحدهما ولم يعرج الآخر ، فكأن المعرج به أراد أن يعزيه .

فقال إياس : أما أنت فقد عرجت بكرمك وأما هو فاستمر على ثقته[٢]

فى منصة القضاء :

مما مر بنا من أخبار إياس يمكن القول إنه كان كثير التنقل بين العراق والشام ، بل لعل أسرته استقرت فترة فى أيام صباه فى دمشق أو غيرها كما يؤخذ من حادثة الاحتجاج على أطفال النصارى فى إثارتهم موضوع طعام أهل الجنة فإن القصة تذكر صراحة أن ذلك كان بالشام لأن المعلم كان نصرانياً ، وهذا مما يوحى أن أسرة إياس استقرت فى الشام فترة ، ثم عاد

---

(١) تهذيب تاريخ ابن عساكر ج ٣ ص ١٧٨

(٢) تهذيب تاريخ ابن عساكر ج ٣ ص ١٧٩

إليها بعد ذلك لما اشتد عوده وتصرف فى أمور الحياة مما أدى إلى اختلافه مع شيخ كبير فى السن جعلهما يرفعان أمر الخلاف إلى القضاء ليحكم بينهما ، ووقائع أحداث القصة تشير إلى أن إياساً كان لم يزل يافعاً .

ونعرف كذلك أنه قد عزم على الحج من الشام وأنه قد رغب إلى المكارى أن يذهب مع من لا يعرف شخصه مما يشعر أن شخصية إياس كانت قد عرفت فى الشام والعراق على السواء وأن شهرته كانت تسبقه إلى أى مكان يرحل إليه كما يفهم من استقبال عامة الناس وعلمائهم له لما نزل مدينة واسط بالعراق .

ولسنا فى حاجة أن نبحث عن صلته بشيوخ البصرة ورجالها فقد ذكر صراحة أنه وأباه تتلمذا على الحسن ، وسنرى فيما بعد فرحة كل من الحسن وابن سيرين بتوليه القضاء .

وليس غريباً بعد هذه الشهرة الواسعة أن يدعى إلى تولى قضاء البصرة بعد أن استعفى الحسن البصرى ، وكان ذلك فى عام ٩٩ هـ ، بعد أن آلت الخلافة إلى الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز ، ولئن صح أن سن إياس كانت عند موته ٧٦ سنة وأنه توفى عام ١٢٢ هـ ، فمعنى ذلك أنه ولى القضاء وله من العمر ثلاث وخمسون سنة .

غير أن ماروى بالنسبة لعمر إياس وعمر أبيه يحتاج إلى المراجعة إذ لا يمكن قبول ماروى كما هو وإلا لأدى ذلك إلى أن يكون إياس قد ولد وعمر أبيه عشر سنوات وهذا ما لا يمكن قبوله ، فبعض الروايات تذكر رؤيا إياس التى تقول إنه رأى أنه يسابق أباه فلم يسبق أحدهما الآخر وأنه عبرها بأنه يعيش مثلما عاش أبوه وهو ٧٦ سنة ، وقد توفى أبوه سنة ١١٣ هـ عند أكثر المؤرخين ، وهذا يعنى أن إياساً ولد سنة ٤٦ هـ .

وأن أباه ولد سنة ٢٦ هـ ، وهذا ما لا يمكن قبوله ، ولهذا فإنى أميل إلى الأخذ بالرواية التى تقول إن أباه توفى سنة ثمانين الهجرة[1] على الرغم من أن كل المراجع التى تحدثت عن معاوية بن قرة أبى إياس ذكرت أن وفاته كانت ١١٣ ما عدا وفيات الأعيان .

هذا استطراد ساقنا إليه البحث عن عمر إياس حينما ولى القضاء ، وقد آن لنا أن نعرف كيف آل القضاء إلى إياس ،وكيف كان موقفه من إسناد القضاء إليه ، وكيف استقبل علماء البصرة توليه القضاء ، وكيف كان مسلكه وهو قاض مع طائفة من القضايا التى تناولها وأخيراً لماذا ترك القضاء .

أما كيف تولى القضاء ، فإن عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه كتب إلى نائبه بالعراق عدى بن أرطاة أن اجمع بين إياس بن معاوية والقاسم بن ربيعة ، فول قضاء البصرة أنفذهما[2] ، وهناك رواية أخرى تقول: إن عمر كتب إلى عامله يقول : إن قبلك رجلين من مزينة فول أحدهما قضاء البصرة ، وهو يعنى إياساً وبكر بن عبد الله المزنى .

وسواء كان هو القاسم أو بكر فإن والى العراق صدع بأمر الخليفة وجمع بين الرجلين وأطلعهما على كتاب الخليفة ، فماذا كان ؟ أخذ كل منهما يدفع القضاء عن نفسه جهد طاقته ذلك أنه لم يكن بهم تهالك على الدنيا ولا تقاتل على المناصب ولا سعى وراء الجاه والسلطان ، وإنما كان هم الرجل منهم أن يخرج من دنياه بما يغلب على ظنه النجاة فى الآخرة ولم يكن القضاء عندهم مما يجلب ذلك الظن ، ولهذا لم يكد الوالى يفرغ من عرض كتاب الخليفة حتى بادره

---

(١) وفيات الأعيان جـ ٢ ص ٢٩١

(٢) وفيات الأعيان جـ ٢ ص ٢٨٧

إياس قائلا : أيها الأمير سل عنى وعن القاسم فقيهى المصر الحسن البصرى ومحمد بن سيرين ـ وكان القاسم يأتيهما وإياس لا يأتيهما .

وأدرك القاسم أنه إن سألهما أشارا به ، فقال على الفور : أيها الأمير ، لا تسأل عنى ولا عنه ، فوالله الذى لا إله إلا هو ، إن إياس بن معاوية أفقه منى وأعلم بالقضاء فإن كنت كاذباً ، فما يحل لك أن توليني وأنا كاذب ، وإن كنت صادقاً فينبغى لك أن تقبل قولى .

وأدرك إياس وهو الألمعى اللبيب أن صاحبه أوشك أن يفلت ، وأن الأمر معلق برقبته لا محالة فقال : إنك جئت برجل أوقفته على شفير جهنم ، فنجى نفسه منها بيمين كاذبة يستغفر الله منها ، وينجو مما يخاف .

فقال عدى بن أرطاة (الأمير) أما إذ فهمتها فأنت لها وأسند إليه قضاء البصرة[1] .

وهذا لعمرى موقف يشرق له وجه المروءة ويزدهى به التاريخ وتسمو به قيمة الرجال أين منه ما نسمعه اليوم من أمور أغرب من الخيال من أن أحدهم إذا اتجهت الأنظار إلى تكليفه بمنصب من المناصب تتابعت الشكاوى تنهش عرضه وتفترى عليه ، وتنسب إليه من السوءات ما يخدش المروءة ويغض من كرامة الإنسان .

ويبدو أن هذه ليست أولى المحاولات التى بذلت مع إياس لتوليه القضاء وأنه كانت بينه وبين بكر تقدير متبادل .

---

(١) وفيات الأعيان جـ ٢ ص ٢٨٧ ، ٢٨٨ وأورد ابن عساكر تفصيلا آخر قال فيه إن الرسالة دعت الوالى أن يجمع ناساً ويشاورهم فى إياس والقاسم وكان فيمن دعى الحسن وابن سيرين جـ ٣ ص ١٨٠

فيروى ابن عساكر أن أهل البصرة قالوا لإياس اختر لنا قاضياً نوليه القضاء، فقال : ما أتقلد ذلك .

فقيل له : لو وجدت رجلا ترضاه فتشير علينا به .

فقال : نعم ، هو بكر .

فقيل له : أترى له أن يلى القضاء ؟

فقال : نعم .

فقيل له : إنك خيار مرضى ، وولى القضاء وهو كاره[1] .

كيف استقبل القضاء :

عرفنا كيف حاول إياس أن يدفع القضاء عن نفسه فى ذلك الحوار الذى جرى أمام الوالى وكيف أبان كل من إياس وصاحبه سواء أكان القاسم ابن ربيعة أو بكر بن عبد الله المزنى عن أصالة المعدن وعلو النفس ومراقبة الله والخشية من الوقوع فى المعصية ولهذا استقبل إياس القضاء وهو كاره .

أما العلماء فقد فرحوا بتوليه القضاء .

فقال أيوب : لقد رموها بحجرها .

ولما دخل عليه الحسن بعد تقلده القضاء ، وجده يبكى ، أو أنه بكى لما رأى الحسن ، فقال له الحسن ما يبكيك ؟

فقال إياس : ياأبا سعيد : بلغنى أن القضاة ثلاثة ، رجل اجتهد وأخطأ فهو فى النار ، ورجل مال به الهوى فهو فى النار ، ورجل اجتهد وأصاب فهو فى الجنة .

---

(١) تهذيب تاريخ ابن عساكر جـ ٣ ص ١٨٠

فقال الحسن : أخذ الله على الحكام ثلاثة عهود : أن لا يشتروا به ثمناً قليلا ، ولا يخشوا فيه الناس ، وأن لا يتبعوا الهوى ، ثم قرأ : « يا داوود إنا جعلناك خليفة فى الأرض فاحكم بين الناس بالحق ، ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله »[١] . ثم قرأ « ولا تشتروا بآياتى ثمناً قليلا » ثم قال : وإن فيما قصه الله من نبأ داوود وسليمان ما يرد قول هؤلاء الناس الذى يقولون ، ثم قرأ : « وداوود وسليمان إذ يحكمان فى الحرث إذ نفشت فيه غنم القوم ، وكنا لحكمهم شاهدين »[٢] ، فأثنى الله على سليمان خيراً ولم يذم داوود[٣]

ويروى ابن كثير أن الحسن وابن سيرين كانا معاً جاءا ليسلما عليه[٤] .

فى مجلس القضاء :

كان إياس يأخذ للقضاء عدته ويعلم أن كلمة يقولها ستثبت حقاً وتمحو باطلا ، وترفع شخصاً أو تضعه ، وتملك هذا أو تحرم ذاك .

ولذا فهو يعرف أنه على خطر عظيم ولعل هذا هو السر فى قوله : « أنا أكلم الناس بنصف عقلى ، فإذا اختصم إلى اثنان جمعت عقلى كله »[٥]، وهذا يعنى إدراكا واعياً لما يترتب على حكمه من آثار بين الناس فى جيله وأجيال تأتى بعده .

---

(١) سورة ص آية : ٢٦

(٢) سورة الأنبياء آية : ٧٨

(٣) تهذيب تاريخ ابن عساكر ج ٣ ص ١٨١ ووردت القصة بأكثر من رواية .

(٤) البداية والنهاية ج ٩ ص ٣٢٧

(٥) تهذيب تاريخ ابن عساكر ج ٣ ص ١٨٠

وعلى ضوء هذا الإدراك لخطورة الأمور التى يعالجها نستطيع أن نتلمس حذر الرجل منذ اللحظة الأولى وتحسسه لخطاه واستلهامه من الله المعونة والعون والتوفيق حينما نسمع إلى خالد الحذاء يقول : قال لى إياس إن هذا الرجل يعنى (عديا) قد بعث إلى فانطلقت معه ، فدخل عليه ، ثم خرج ، ومعه حرسى ، فقال لى : أبى أن يعفينى ، فأتى المسجد فصلى ركعتين ، ثم قال للحرسى : قدم أصحاب الشكايات ، فما قام حتى قضى فى سبعين قضية[1] .

ومن خلال تناوله للقضايا التى تعرض له وحكمه فيها يتبين لنا كيف كان إياس يستغل مواهبه جميعها فى إعادة الحق إلى نصابه وإنصاف المظلومين وإعطاء كل ذى حق حقه .

وهذا جانب من القضايا التى عرضت له واستطاع فيها بما وهب من فراسة صادقة أن يصل إلى الحق الصراح وأن يجعل المنكر يعترف بما لديه من حقوق : استودع رجل آخر مالا عنده وكان الرجل أمينا لا بأس به ، ثم خرج المستودع إلى مكة ، فلما عاد طلب ماله فجحده المستودع عنده وأنكره ، فأتى إياسا وأخبره .

فقال إياس : أعلم أنك أتيتنى ؟

قال : لا .

قال : أفنازعته عند أحد ؟

قال : لا . لم يعلم بهذا أحد .

---

(١) تهذيب تاريخ ابن عساكر ج ٣ ص ١٨ .

قال إياس : فانصرف واكتم أمرك ثم عد إلى بعد يومين .

فمضى الرجل ، ثم دعا إياس الذى عنده الوديعة ، وقال له : قد حضرنى مال كثير أريد أن أصيره إليك ، أفحصين منزلك ؟

قال : نعم .

قال : فأعد موضعاً للمال وقوماً يحملونه .

وعاد الرجل صاحب الوديعة إلى إياس ، فقال له : انطلق إلى صاحبك فاطلب مالك ، فإن أعطاك فذاك ، وإن جحدك ، فقل له : إنى أخبر القاضى .

فأتى الرجل صاحبه وقال له : مالى وإلا أتيت القاضى فشكوت إليه ، وأخبرته بأمرى ، فدفع إليه ماله ، فرجع الرجل إلى إياس فقال : قد أعطانى المال .

وجاء المستودع عنه إلى إياس لموعده ، فزجره وانتهره .

وقال له : لا تقربنى يا خائن[1] .

ومن هذا القبيل ما رواه المدائنى قال : استودع رجل رجلا مالا ثم طلبه فجحده ، فخاصمه إلى إياس بن معاوية .

فقال الطالب : إنى دفعت إليه المال .

قال إياس : ومن حضرك ؟

---

(١) تهذيب تاريخ ابن عساكر جـ ٣ ص ١٨٢ ، وفيات الأعيان الهامش جـ ٢ ص ٢٨٦ البداية جـ ٩ ص ٣٣٧

قال الرجل : دفعته إليه فى مكان كذا وكذا ، ولم يحضرنا أحد .

سأله إياس : فأى شىء كان فى ذلك الموضع ؟

أجاب الرجل : شجرة .

قال إياس : فانطلق إلى ذلك الموضع فانظر إلى الشجرة فلعل الله تعالى يوضح لك هناك مايتبين به حقك ، لعلك دفنت مالك عند الشجرة ونسيت، فتتذكر إذا رأيت الشجرة .

فضى الرجل ، وقال إياس للمطلوب : اجلس حتى يرجع خصمك فجلس وإياس يقضى وينظر إليه ساعة ، ثم قال له : يا هـذا أترى صاحبك بلغ موضع الشجرة التى ذكر ؟

قال : لا .

قال له : ياعدو الله إنك لخائن .

قال الرجل : أقلنى أقالك الله .

وأمر إياس من يحتفظ به حتى جاء الرجل .

فقال له إياس : قد أقر الك بحقك فخذه منه[1] .

ومن أعجب ما يكشف عن فطنة إياس كشفه للحق فى القضية التالية : استودع رجل كيساً فية دنانير رجلا آخر ، ثم غاب فطالت غيبته ، ففتق المودع عنده الكيس من أسفله وأخذ الدنانير ، وجعل فى الكيس دراهم وخاطه ، والخاتم على حاله .

---

(١) تهذيب تاريخ ابن عساكر جـ ٣ ص ١٨٧ - البداية جـ ٩ ص ٢٣٧ - وفيات الأعيان جـ ٢ ص ٢٨٦

ثم قدم صاحب المال بعد خمس عشرة سنة فطلب ماله ، فدفع إليه الكيس بخاتمه ، فلم يقبله ، وقال : هذه دراهم ومالى دنانير ، فقال الآخر ، هذا كيسك بخاتمك ، فترافعا إلى عمر بن هبيرة ، فقال لإياس : انظر فى أمر هذين .

فقال إياس للطالب : ما تقول ؟

قال : أعطيته كيساً فيه دنانير .

سأله : منذ كم ؟

أجاب : منذ خمس عشرة سنة .

وسأل إياس الرجل الآخر:ماتقول ؟

فأجاب : كيسه بخاتمه .

سأله ثانية : منذ كم ؟

فأجاب : منذ خمس عشرة سنة .

ففضوا الخاتم ونثروا الدراهم ، فوجدوها ضرب عشر سنين وخمس سنين وأقل وأكثر .

فقال إياس : أقررت أنه عندك منذ خمس عشرة سنة ، وفى الكيس ضرب عشر سنين وخمس سنين .

فأقر بالدنانير ، وألزمه إياها .

ومن ألطف القضايا : أن رجلا رد جارية اشتراها ممن كانت عنده ، فخاصمه إلى إياس .

فسأله : لم رددتها ؟

أجاب : لحق كان فيها ، وأنكر البائع العلة .

فسألها إياس : أى رجلين أطول ؟

أجابت : هذه .

ثم سألها : أتذكرين أى ليلة ولدت ؟

أجابت : نعم .

قال إياس : ردها ردها[1]

ومما يكشف عن قدرته الفائقة على الوصول إلى الحق مهما حاول المدعى أن يموه عليه ويفتر الشهود وينتزع منهم الشهادة له تلك القضية العجيبة التى أوردها ابن الجوزى فى كتابه الطرق الحكمية قال : شهد معاوية بن قرة ـ والد إياس ـ عند ابنه مع رجال عدلهم على رجل بأربعة آلاف درهم .

فقال المشهود عليه : يا أبا واثلة ، تثبت فى أمرى فوالله ما أشهدتهم إلا على ألفين .

فسأل إياس أباه والشهود : أكان فى الصحيفة التى شهدوا عليها فضل ؟

قالوا : نعم كان الكتاب فى أولها والطينة فى وسطها وباقى الصحيفة أبيض.

قال : أفكان المشهود له يلقاكم أحياناً فيذكركم شهادتكم بأربعة آلاف درهم ؟

قالوا : نعم ، كان لايزال يلقانا فيقول اذكروا شهادتكم على فلان بأربعة آلاف درهم .

---

(١) تهذيب تاريخ ابن عساكر ج ٣ ص ١٨٣ والطرق الحكمية .

فصرفهم ، ودعا المشهود له ، فقال : يا عدو الله تغفلت قوماً صالحين مغفلين فأشهدتهم على صحيفة جعلت طينتها فى وسطها ، وتركت فيها بياضاً فى أسفلها ، فلما ختموا الطينة قطعت الكتاب الذى فيه حقك ألفا درهم، وكتبت فى البياض أربعة آلاف ، فصارت الطينة فى آخر الكتاب ، ثم كنت تلقاهم فتلقنهم وتذكرهم أنها أربعة آلاف .

فلما واجه إياس الرجل بما صنع أقر به ، وسأله الستر عليه ، فحكم له بألفين فقط[1] .

وقد لفتت هذه القدرة الناس إلى عبقرية إياس وحدة ذكائه حتى جاءه رجل وقال له : علمنى القضاء ..

فقال : إنه فهم لا يتعلم ، ولكن لو قلت علمنى العلم لكان أحسن[2] .

وكان إياس يتشدد فى عدالة الشهود ويرد من لم يرضه ، وكان الحسن لا يرد شهادة المسلم إلا أن يجرح المشهود عليه الشاهد .

وذات يوم جاءه رجل رد إياس شهادته ، فقال له : يا أبا سعيد إن إياساً رد شهادتى ، فقام معه إليه ، فقال له : يا أبا واثلة لم رددت شهادة هذا المسلم ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من صلى لقبلتنا فهو مسلم له مالنا ، وعليه ما علينا » .

فقال إياس : يا أبا سعيد : إن الله عز وجل ، يقول :

---

(١) الطرق الحكمية ص ٣٦ ، ٣٧

(٢) تهذيب تاريخ ابن عساكر ج ٣ ص ١٨٣

« ممن ترضون من الشهداء »[1] وهذا ممن لا نرضاه فلم يكلمه الحسن بعد ذلك[2] .

وظل إياس على قضاء البصرة عاماً حتى حاول عدى بن أرطأة أن يتدخل فى شأن القضاء فامتنع عليه وأخذ عدى يدبر له مع بعض حساده أمراً ينال به منه فترك البصرة متخفياً .

وقصة ذلك ما حدث به المدائنى قال : قال أبو قبيصة حاتم بن قبيصة ، كان المهلب بن القاسم تزوج أم شعيب بنت محمد بن الهرماس ، وأمها عليا بنت أبى صفرة ، وأم القاسم بن عبد الرحمن فاطمة بنت أبى صفرة ، وكان المهلب بن القاسم ماجناً يشرب ، فشرب يوماً وامرأته بين يديه ، فناولها القدح فأبت أن تشربه ، ووضعته بين يديها ، فقال لها : أنت طالق ثلاثاً إن لم تشربيه ، فقام إليها نسوة فقلن لها إشربيه .

وفى الدار ظبى داجن ، فعدا الظبى فر بالقدح فكسره ، فقامت المرأة ، وجحد المهلب ، فقال : لم أطلقك ، ولم يكن لها شهود إلا النساء .

فأرسلت إلى أهلها ، فحولوها إليهم ، فاستعدى القاسم بن عبد الرحمن عدى بن أرطأة ، وقال : غلبوا ابنى على امرأته .

فتعصب له عدى بردها .

فخاصمه إلى إياس بن معاوية وشهد لها نساء .

فقال له إياس : لئن قربتها لأرجمنك .

---

(١) سورة البقرة ٢ آية رقم ٢٨٢

(٢) تعليق الأستاذ نجاتى على وفيات الأعيان جـ ٢ ص ٢٨٣

فغضب عدى على إياس .

فقال له عمر بن يزيد الأسدى - وكان عدواً لإياس لأن إياساً قضى على أبيه بأرحاء كانت فى يده لقوم - فقال لعدى : انظر قوماً يشهدون على إياس أنه قذف المهلب بن قاسم فنحره ، ويعدل من يشهد عليه ، فأتاه بيزيد (الرشك) وابن رباح مولى ضبيعة ليلا ، فأجمعوا على أن يرسل عدى إلى إياس إذا أصبح ، فيشهدان عليه .

إن المرء ليأخذه العجب حينما يرى رجلا مثل عدى بن أرطأة لا يتورع أن يستبيح لنفسه أن يختلق قضية قذف ضد إياس ويعد لها شهود الزور حتى ينال منه ويعاقبه أن اعتز بكرامته كقاضى وحافظ على دينه كمسلم وراعى الله فيما وكل إليه من أموال الناس وأعراضهم إن حادثاً مثل هذا إن دل على شىء فإنما يدل فساد فى الذمم وخراب فى الضمائر استولى عليها مبكراً وجعلها تستبيح فى سبيل هواها ما حرم الله من دم وعرض ومال ، وقاتل الله السلطان فإنه عقيم كما يقولون .

وإن المرء ليعجب عجباً أشد حينما يصدر مثل هذا الإصرار على اختلاق الزور ضد رجل عرف لنفسه كرامتها وراعى أمر ربه من عدى بن أرطأة الذى يقول عنه عباد بن منصور - كما يروى الخطيب - : سمعت عدى بن أرطاة يخطب على منبر المدائن فجعل يعظنا حتى بكى وأبكانا .

ثم قال : كونوا كرجل قال لابنه وهو يعظه : بنى لا تصل صلاة إلا ظننت أنك لا تصلى بعدها غيرها حتى تموت ، وتعال بنى حتى نعمل

بمثل رجلين كأنهما قد أوثقا على النار ثم سألا الكرة[1] فى عظة طويلة . .

ألا ما أعجب النفس الإنسانية ومقدرتها على فعل الخير والشر .

وكان القاسم بن ربيعة الحارثى حاضراً ، فقال عمر بن يزيد لعدى : إن القاسم سيأتى إياساً فيحذره ، فاستحلف عدى القاسم ألا يعلمه لحلف القاسم ، وخرج فمر بباب إياس فقرعه ، فقالوا له : من هذا ؟

فقال : القاسم بن ربيعة ، كنت عند الأمير فأحببت ألا أصل إلى دارى حتى أمر بك ومضى .

فقال إياس : ما جاء فى هذه الساعة إلا لأمر علمه خاف على منه فتوارى وخرج إلى واسط .

فاغتم عدى ، فقال له يوسف بن عبد الله بن عثمان بن أبى العاص : خذ الوثيق من الأمر ، إن أردت ألا يعتب عليك أمير المؤمنين فاستقض الحسن ، فولى عدى الحسن ، وكتب إلى عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه : تغيب إياس بن معاوية .

ويذكر أن قوماً ثقات شهدوا أنهم رأوا إياساً وخالد بن أبى الصلت فى بعض خرابات واسط يتكلمان بما لا تنطق به الألسنة ، وبلغنى أن إياساً يقول : إذا كانت السنة كثيرة الأمطار فهى سنة وبيئة »[2] .

ويبدو أن عمر لم يقنعه ما قال عدى بالنسبة لإياس وأدرك ببصيرته أن فى الأمر مكيدة إلا إنه لم يكن لديه من الأدلة ما يجعل الأمر يبلغ عنده مبلغ

---

(١) تاريخ بغداد جـ ١٢ ص ٣٠٩

(٢) تعليق الأستاذ نجاتى على وفيات الأعيان جـ ٢ ص ٢٨١ ، ٢٨٢

اليقين ، فكتب إلى عدى كتاباً يستشف المرء من خلاله شكوك عمر فيما حدث به عدى عن إياس والكتاب يقول :

« ما رأيت أحداً كان أحسن قولا فى إياس من أبيك ، ولا رأيت أحداً فى زماننا الثناء عليه أحسن منه عليه ، وقد بلغنى نقح من ثنائكم لم يتحقق عندى ، وقد أحسنت إذ وليت الحسن[1] .

وقد أخذ إياس طريقه إلى دمشق وهذه هى الرحلة التى وعدنا أن نتحدث عنها من قبل ، ولكن ليس هناك مانعرف منه أنه التقى بعمر بن عبد العزيز هذه المرة إذ يبدو أنه وصل دمشق بعد وفاة عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه وكان يتردد على مسجد دمشق وكان يتردد على الحلقات المقامة فيه ويشارك فيه ، وذات يوم أتى حلقة من حلق قريش فى مسجد دمشق فاستولى على المجلس ، ورأوه أمرد دميما باذ الهيئة قشفاً فاستهانوا به . فلما عرفوه اعتذروا له ، وقالوا : الذنب مقسوم بيننا وبينك ، رأينا رجلا فى زى مسكين يكلمنا بكلام الملوك[2] .

ويبدو أن بقاء إياس بعيداً عن البصرة لم يطل إذ لم يلبث عدى بن أرطأة أن قتل عام ١٠٢ هـ فزال الخطر الذى كان يتهدد إياساً ويلجئه أن يبقى بعيداً عن أهله وبلده .

ولا شك أن ذكاء إياس الحاد هو الذى جعله يدرك ما عناه القاسم ابن ربيعة حينما مر به ولم يقل شيئاً أكثر من أنه أحب ألا يصل إلى داره قبل أن يمر به .

---

(١) تعليق الأستاذ بهائى على وفيات الأعيان جـ ٢ ص ٢٨١ ، ٢٨٢
(٢) » » » » » » ص ٢٨٤

وهذه العبقرية الفذة هى التى دعت رجلا كالجاحظ أن يقول عن إياس : « وجملة القول فى إياس أنه كان من مفاخر مضر ، ومن مقدمى القضاة ، وكان رقيق البدن دقيق المسلك فى الفطن ، وكان صادق الحس نقاباً ، وعجيب الفراسة ملهماً ، وكان عفيف الطعم ، كريم المدخل والشيم ، وجيهاً عند الخلفاء ، مقدماً عند الأكفاء[1] .

وقال ابن شوذب: كان يقال يولد فى كل مائة سنة رجل تام العقل فكانوا يرون أن إياساً منهم[2] .

وكان إياس لطيف العشرة كريم الصحبة ، فقد صاحبه رجل فى سفر ، فلما أراد أن يفارقه ، قال له الرجل : أخبرنى عن عيوبى

قال له : سل غيرى فإنى كنت أراك بعين الرضا .

وقد سئل : من أحب الناس إليك ؟

أجاب : من أعطانى .

قيل : ثم من ؟

قال : ثم من أعطيته .

ويبدو أن إياساً بعد هذه الحياة الطويلة العريضة أراد أن يعتزل الناس فى آخر حياته ويتفرغ لعبادته ونسكه ويتهيأ للإقبال على ربه .

فقد روى أنه رأى فى لحيته شيبة فقال : أرى الموت يطلبنى وأرانى لا أفوته أعوذ بالله من فجأة الأمور .

---

(١) تعليق الأستاذ نجاتى على وفيات الأعيان جـ ٢ ص ٢٩١

(٢) تهذيب تاريخ ابن عساكر جـ ٣ ص ١٧٦

يابنى سعد ، قد وهبت لكم شبابى ، فهبوا لى شيبى ولزم بيته .

فقال له أهله : تموت هزالا .

قال : لأن أموت مؤمناً مهزولا أحب إلى من أن أموت منافقاً سميناً (١)

قال ابن خلكان :

وقد تنبأ إياس بوفاته فقد روى عنه أنه قال فى العام الذى توفى فيه : رأيت فى المنام كأنى وأبى على فرسين فجريا معاً فلم أسبقه ولم يسبقنى وعاش أبى ستاً وسبعين سنة وأنا فيها ، فلما كان آخر لياليه قال : أتدرون أى ليلة هذه ؟ ليلة استكمل فيها عمر أبى ونام ، فأصبح ميتاً وكان ذلك عام ١٢٢ هـ (٢) فى ضيعة له بمكان يسمى عيدس بين البصرة وخوزستان .

رحم الله إياساً وأكرم مثواه .

---

(١) تعليق الأستاذ نهانى على وفيات الأعيان جـ ٢ ص ٢٨٦

(٢) وفيات الأعيان جـ ٢ ص ٢٩٠ / ٢٩١

مراجع

١ - وفيات الأعيان ج ٢

٢ - تهذيب تاريخ ابن عساكر ج ٣

٣ - تاريخ بغداد ج ١٢

٤ - البداية والنهاية ج ٩

٥ - الأغاني ج ٧

٦ - تهذيب التهذيب ج ١

٧ - العقد الفريد ج ٢ ، ج ٣

٨ - العبر ج ١

٩ - الطرق الحكمية

ربيعة الرأى

١٣٦ هـ

ربيعة بن أبى عبد الرحمن فروخ الملقب بربيعة الرأى واحد من سادة العلماء الذين كان يرجع إليهم فى مدينة الرسول ﷺ ، أخذ عنه أكابر العلماء فى عصره ورووا عنه الكثير وبلغوا بما أخذوا عنه مبلغاً من الجاه والشهرة وبعد الصيت لفت انتباه الآخرين عنهم حتى سأل أنس بن مالك رضى الله عنه وهو يروى عن ربيعة بعض الآخرين عنه أن يزيدهم من حديث ربيعة ، إلى أن قال لهم ذات يوم : ما تصنعون بربيعة ؟ هو نائم فى ذاك الطاق ، وأشار إلى مكان بالمسجد .

فذهب الطلاب إليه وأنبهوه وسألوه : أنت ربيعة بن عبد الرحمن ؟

قال : بلى .

قالوا : زيادة فى التأكد : ربيعة بن فروخ .

قال : بلى .

قالوا : والدهشة تعقد ألسنتهم : ربيعة الرأى .

قال : بلى .

قالوا : أنت هذا الذى يحدث عنه مالك بن أنس ؟

قال : بلى .

فقالوا له : كيف حظى بك مالك ولم تحظ أنت بنفسك ؟

وهذا يدل على أن ما كان يرويه عنه مالك كان يؤخذ بالتقدير والقبول وعلو المنزلة ورغبة العلماء فى الأخذ به ثقة فيه .

قال : أما علمتم أن مثقالا من دولة خير من حمل علم[1] .

وهو يعنى حسن الحظ والإقبال .

ولئن كان مالك إمام دار الهجرة قد تتلمذ على ربيعة وأخذ عنه علمه واكتسب روايته عنه تلك الشهرة الواسعة فى حين أنه كان فى الوقت الذى يسعى طلاب العلم فيه من اليمن إلى المدينة لتلقى علم ربيعة عن أنس كان ربيعة نائماً فى طاق بالمسجد لا يأتى إليه أحد لئن كان الأمر كذلك بالنسبة لمالك فإن أبا حنيفة إمام أصحاب الرأى بالعراق كان قد سعى إلى ربيعة يأخذ عنه ويجهد فى فهم ما عنده كما يشير إلى ذلك الخبر الذى رواه الخطيب البغدادى وأسنده إلى يونس بن يزيد قال : رأيت أبا حنيفة عند ربيعة بن عبد الرحمن وكان مجهود أبى حنيفة أن يفهم ما يقول ربيعة[2] .

وما تشير إليه القصة السابقة من أن ربيعة كان نائماً فى طاق بالمسجد فى الوقت الذى كان طلاب العلم فيه يحفون بمالك يجعلنا نتساءل متى كان ذلك ؟ هل كان فى أول أمره ؟ إن ما سنعرفه بعد من رؤية أبيه له فى الحلقة بالمسجد وهو لم يبلغ الثلاثين بعد ، ومن حوله وجوه الناس من بينهم مالك نفسه والحسن بن زيد بن الحسن شيخ بنى هاشم يجعلنا نستبعد ذلك .

ولكننا ربما نقول إن ذلك كان بعد المحنة التى تعرض لها بسبب ما بينه

---

(١) تاريخ بغداد جـ ٨ ص ١٢٤ ؛ ووفيات الأعيان جـ ٥ ص ٢٩٤ لنشر الرفاعى .

(٢) تاريخ بغداد جـ ٨ ص ٤٢٣

وبين أبي الزناد من تباعد ، ويبدو أن العلاقة بين الرجلين لم تكن علاقة قرب واتصال وإنما كانت علاقة تباعد منشؤه فيما أظن ما يقع من تنافس بين الأقران .

ويدل على ذلك ما رواه أبو يوسف عن أبي حنيفة أنه قال : قدمت المدينة فأتيت أبا الزناد ورأيت ربيعة ، فإذا الناس على ربيعة ، وأبو الزناد أفقه الرجلين ، فقلت له أنت أفقه والعمل على ربيعة ، فقال ويحك كف من حظ خير من جراب من علم[1] .

وعلى أي حال فابن حجر يروى في موضع آخر عن أبي داود أن الذي بين أبي الزناد وربيعة متباعداً ، وكان أبو الزناد وجيهاً عند السلطان فأعان على ربيعة ، فضرب وحلقت نصف لحيته ، وحلق هو النصف الآخر[2] .

فلو ضممنا الخبرين بعضهما إلى الآخر لكان لنا أن نستنتج أن أبا الزناد ربما استباح لنفسه أن يقبح أمر ربيعة عند السلطان خاصة إذا ضممنا إلى ماسبق مارواه الليث قال : رأيت خلفه (يعني أبا الزناد) ثلاثمائة تابع من طالب فقه وطالب شعر وصنوف ، ثم لم يلبث أن بقي وحده ، وأقبلوا على ربيعة الرأي[3] ، وعلى الرغم من سعي أبي الزناد ضد ربيعة وتحريضه عليه فإن الأمر لما تغير وجاء أمير جديد فسد الأمر بينه وبين الزبير حتى طين بيته لم يشفع له إلا ربيعة لاعتقاده أنه يقول بالرأي لخاصه به هذه المحنة التي أدت إلى انزوائه بعد ماشغل حلقات العلم من قبل وقد يكون الأمر غير هذا وأن

---

(١) تهذيب التهذيب جـ ٥ ص ٢٠٤

(٢) تهذيب التهذيب جـ ٣ ص ٢٥٩

(٣) العقد الفريد جـ ٤ ص ١٢٦

هناك أسباباً أخرى لا دخل لأبى الزناد فيها ، ومما يتصل بخبر حلق لحيته أن امرأة كانت فى المسجد تقف كل يوم على حلقته وتقول كالمغيظة له : الله الله يا أبا عبد الرحمن من حلق لحيتك ؟

فلما ضايقته قال لها : ياهذه ، إن ذلك حلقها فى جزة واحدة وأنت تحلقينها فى كل يوم[1] .

ولئن كان إماماً العراق والحجاز قد أخذا عنه وتفقها على يديه فإن أمامى الشام ومصر أبو عمرو الأوزاعى والليث بن سعد قد نهلا من معينه وتلقيا عنه فى جملة من تلاقى من رءوس العلم الذين كانوا يشار إليهم بالبنان فى جيله والجيل الذى يليه ممن عرفوا بالعلم والتقى والصلاح والنسك والاستقامة من أمثال سفيان الثورى وسفيان بن عيينة وشعبة بن الحجاج ويحيى بن سعيد ومن على شاكلتهم .

وعلم ربيعة وفقهه وتقواه يشهد بها كل من عاصره من نظرائه أو ممن أخذوا عنه ، فقد قال عنه مصعب الزبيرى : أدرك بعض الصحابة والأكابر من التابعين ، وكان صاحب الفتوى بالمدينة ، وكان يجلس إليه وجوه الناس بالمدينة ، وكان يحصى فى مجلسه أربعون معتما »[2] .

وقد روى الليث عن يحيى بن سعيد أنه قال : مارأيت أحداً أفطن من ربيعة بن عبد الرحمن »[3] .

---

(١) تذكرة الحفاظ جـ ١ ص ١٢٧

(٢) تاريخ بغداد جـ ٨ ص ٤٢١ ، تهذيب التهذيب جـ ٣ ص ٢٥٨

(٣) تاريخ بغداد جـ ٥ ص ٢٤١

ويروى الليث أيضاً عن عبيد الله بن عمر قوله في ربيعة : هو صاحب معضلاتنا وعالمنا وأفضلنا[1] .

وقال معاذ بن معاذ سمعت سوار بن عبد الله يقول : مارأيت أحداً أعلم من ربيعة الرأى .

قلت : ولا الحسن وابن سيرين ؟

قال : ولا الحسن وابن سيرين[2] .

ويبدو أن فقه ربيعة لكتاب الله وسنة نبيه كان عوناً له على فهم المراد منها واستنباط الأحكام الصحيحة يعينه على ذلك دراسة واسعة لكتاب الله وإلمام كامل بسنة نبيه وبصيرة نافذة تستطيع أن تدرك المرامى البعيدة للشارع الحكيم وتنفذ إلى حكمة التشريع حتى قال مالك بن أنس رحمه الله لما توفى ربيعة — ذهبت حلاوة الفقه منذ مات ربيعة الرأى[3] .

ولعل هذه القدرة الفائقة على الاستنباط والفهم هى التى جعلت الناس يلقبونه بربيعة الرأى ظناً منهم أنه يذهب مذهب أهل الرأى بعيداً عن الاعتماد على السنة ، وهذا ماظنه أيضاً فيه أهل العراق لما سمعوا عنه هذا اللقب ، كما يفهم مما يرويه الخطيب البغدادى عن عبد العزيز بن أبى سلمة قال :

لما جئت العراق ، جاءنى أهل العراق فقالوا :

حدثنا عن ربيعة الرأى .

---

(١) و (٢) تاريخ بغداد جـ ٥ ص ٤٢١
(٣) وفيات الاعيان جـ ٥ ص ٢٩٧

فقلت : يا أهل العراق تقولون ربيعة الرأي ؟ لا والله ما رأيت أحداً أحوط لسنة منه[1] .

ويؤيد هذا ما نسبه الذهبي إلى ابن الماجشون أنه قال « ما رأيت أحداً أحفظ لسنة من ربيعة »[2] .

وكانت العلاقة بين ربيعة وبين علماء المدينة فيما عدا ما كان بينه وبين أبي الزناد علاقة مودة ومحبة وتقدير وإجلال ومعرفة بمواهب الرجل وما يتمتع به من علم وفضل وقد مر بنا ما قاله مالك بشأنه ، وقد قيل عنه إنه مكث دهراً طويلا عابداً يصلي الليل والنهار صاحب عبادة ، ثم نزع إلى أن جالس القوم، فجالس القاسم فنطق بلب وعقل ، فكان القاسم إذا سئل عن شيء قال : سلوا هذا لربيعة[3] .

وكان يحيي بن سعيد يجالس ربيعة بن أبي عبد الرحمن فإذا غاب ربيعة حدثهم يحيي أحسن الحديث ، وكان يحيي بن سعيد كثير الحديث ، فإذا حضر ربيعة كف يحيي — إجلالا لربيعة — وليس ربيعة بأسن منه ، وهو فيما هو فيه ، وكان كل منهما مجلا لصاحبه[4] .

وينقل صاحب تاريخ بغداد أنهما ذهبا معاً إلى الهاشمية لما استدعى أبو جعفر يحيي بن سعيد ليقضي بها ، ويبدو أن ربيعة قد عاد إلى المدينة بعد ذلك .

---

(١) تاريخ بغداد جـ ٨ ص ٤٢٣ ، ٤٢٤

(٢) تذكرة الحفاظ جـ ٢ ص ١٩ ؛

(٣) و (٤) تاريخ بغداد ، جـ ٨ ص ٤٢٣

وكان يحيى بن سعيد إذا أشكل عليه أمر بعث إلى بعض أصدقائه أن يعرف رأى ربيعة فيه ويبعث به إليه فقد حدث الخطيب البغدادى بسنده إلى سليمان بن بلال قال :

كان يحيى بن سعيد قد ساءت حاله وركبه الدين ، فبينا هو على ذلك إذ جاءه كتاب أبى العباس يستقضيه . قال سليمان : فوكلنى بأهله ، وقال : والله ما خرجت وأنا أجهل شيئاً .

فلما قدم العراق كتب إلى إنى كنت قلت لك حين خرجت ، قد خرجت وما أجهل شيئاً ، وإنه والله لأول خصمين جلسا بين يدى فاقتضيا والله بشىء ما سمعته قط ، فإذا جاءك كتابى هذا فسل ربيعة بن عبد الرحمن ، واكتب إلى بما يقول ، ولا يعلم أنى كتبت إليك بذلك[١] .

وكان على عادة سادة العلماء لا يرى لإنسان ما مهما كانت منزلته أن يقول فى أمر ما بغير علم ، ولم ينس أن يؤكد على هذه النقطة بالذات حتى وهو على سرير مرضه الذى مات فيه .

فيروى ابن حجر بسنده عن عبد العزيز بن أبى سلمة قال : قلت لربيعة فى مرضه الذى مات فيه ، إنا قد تعلمنا منك وربما جاءنا من يستفتينا فى الشىء ولم نسمع فيه شيئاً فترى أن رأينا خير له من رأيه لنفسه فنفتيه ؟ قال ، فقال : أقعدونى ، ثم قال : ويحك يا عبد العزيز لأن تموت جاهلا خير من أن تقول فى شىء بغير علم لا ، لا ... ثلاث مرات[٢] .

---

(١) تاريخ بغداد جـ ١٤ ص ١٠٤

(٢) تهذيب التهذيب جـ ٣ ص ٢٥٩

وهذا يدل دلالة قاطعة أن ربيعة كان يعتبر نفسه من مدرسة أهل الأثر إلا أنه كان فيما يبدو معطى فهماً فى كتاب الله وقدرة على الاستنباط لم تهيأ لغيره .

سخاؤه :

وكان إلى جانب علمه وفقهه وتقواه كريماً سخياً ، وكان ينفق ما فى يديه على إخوانه فإن نفد استدان حتى لامه أهله فى ذلك ، ولكنه لم يكف فقد روى ابن وهب أن ربيعة أنفق على إخوانه أربعين ألف دينار ، ثم جعل يسأل إخوانه فى إخوانه ، فقال أهله : أذهبت مالك ، وأنت دائم تخليق جاهك .

فقال : لا يزال هذا دأبى ودأبهم ماوجدت أحداً يعطينى على جاهى .

وما كان بالمدينة رجل واحد أسخى نفساً بما فى يديه لصديق أو لابن صديق أو لباغ يبتغيه منه ، وكان لا يسمح لمن يصحبه من القوم أن يتزود أو يكون معه ما يحمل فيه زاده ليقوم هو بكل ذلك(١)

وكان ربيعة يكثر الكلام ويقول الساكت بين النائم والأخرس وبينما هو ذات يوم يتكلم فى مجلسه إذ دخل عليه أعرابى دخل من البادية فأطال الوقوف والإنصات إلى كلامه ، فظن ربيعة أنه قد أعجبه كلامه ، فقال له : يا أعرابى ، ماالبلاغة عندكم ؟

فقال : الإيجاز مع إصابة المعنى .

فقال : وما العى ؟

---

(١) تاريخ بغداد جـ ٥ ص ٤٢٤

قال : ما أنت فيه منذ اليوم ، فخجل ربيعة[1] .

وأبو ربيعة فروخ مولى آل التيميين ، وأمه سيدة كريمة عاقلة أريبة لم تحدثنا المراجع عن اسمها ولا عن قومها ، ولكن مما يبدو من تنشئتها لابنها حتى بلغ هذه المكانة العالية ومن تصرفها مع زوجها لما عاد بعد غياب طال سبعة وعشرين عاماً يدل دلالة واضحة على رجاحة عقلها وحسن تدبيرها فقد خرج فروخ أبو ربيعة إلى الغزو فى خراسان أيام بنى أمية وكان ربيعة حملا فى بطن أمه وامتدت غيبة الأب وانقطعت أخباره حتى كبر ربيعة وترعرع وأصبح فتى يناهز الثلاثين ويجلس إلى حلقته فى مسجد رسول الله سادة القوم وشيوخ بنى هاشم .

ويبدو أن أمه قد وضعت كل أملها فى هذا الوليد بعد أن يئست من عودة المجاهد الغائب ، وكان الأب قد أودع عند زوجته مبلغاً كبيراً من المال بلغ ثلاثين ألف دينار ، فاستعانت الأم بها على تنشئة ابنها نشأة طيبة كريمة .

ولما كان عمر ابنها سبعة وعشرين عاماً شهدت شوارع المدينة فارساً فى يده رمحه يشق الطرق ويتجه إلى بيت ربيعة ، ثم ينزل ويدفع الباب برمحه ، وهنا تبدأ الأحداث تتوالى فى سرعة مذهلة حتى تتجمع أحداث ثلث قرن فى أقل من ساعة .

فلم يكد ربيعة يرى رجلا يدلف إلى بيته ويدق بابه برمحه داخلا من غير استئذان حتى يشتعل غضبه ، ويقول فى غضب وإنكار لذلك المقتحم بدون استئذان : يا عدو الله ، أتهجم على منزلى ؟

---

(١) وفيات الأعيان جـ ٥ ص ٢٩٤

وتدور الأحداث سراعاً فى رأس فروخ الذى غادر بيته هذا منذ سبعة وعشرين عاماً وليس به إلا زوجه وماله كيف اقتحم هذا الشاب داره واستقر بها وما مصير زوجته ؟

فرد فروخ فى غضب لايقل ضراوة : ياعدو الله أنت دخلت على حرمى، وامتد الحوار الساخن فتواثبا وارتفعت أصواتهما حتى اجتمع الجيران الذين أسرعوا يعينون ربيعة على ذلك الغريب الذى لم يرع حرمة البيوت ولاأدب الاستئذان . وينتشر الخبر حتى يصل إلى مالك بن أنس ، وارتفع الضجيج وكل من الرجلين يقسم لايدع صاحبه إلا عند السلطان .

فلما أبصر الناس بمالك مقبلا أفسحوا له وسكن ضجيجهم فتقدم مالك فى وقار العلماء موجهاً حديثه إلى ذلك الغريب المقتحم : أيها الشيخ لك سعة فى غير هذه الدار .

فقال الشيخ فى لهجة صاحب الحق الواثق مما يقول : هى دارى وأنا فروخ.

فلما سمعت امرأته كلامه خرجت من بيتها وقالت : هذا زوجى ، وهذا ابنه الذى خلفه وأنا حامل به ، فانقلب الحال من تشابك وتصايح وتواثب إلى عناق وبكاء ودهشة من تصريف الأحداث .

ودخل فروخ المنزل وجلس إلى زوجه يسألها عن أمورها وأحوالها وما فعلت بعده ، وسألها : هذا ابنى ؛ فقالت : نعم .

وقدم لها أربعة آلاف دينار حملها معه بعد رحلته هـــذه الطويلة وسألها عن الأموال التى خلفها وطلب إليها أن تخرجها فاستمهلته أياماً ريثما تخرجها من المكان الذى خبأتها فيه .

وهذه الإجابة تكشف عن حصافة هذه السيدة الكريمة وبعد نظرها فهى تعرف المكانة الرفيعة التى يحتلها ابنها فى مدينة رسول الله وتدرك أن حلقته فى مسجد الرسول الكريم يتمنى رجال نالوا من الشرف والجاه أعلاه أن لو كان لهم حلقة مثل هـــذه الحلقات التى يجتمع إليها شيوخ المدينة ورجالاتها المعدودين .

ولم يلبث ربيعة بعد أن أدى واجب الترحيب بأبيه الغائب أن استأذن فى الذهاب إلى المسجد ، وأخذ مجلسه فى حلقته كالمعتاد .

ولم يلبث مالك بن أنس والحسن بن على بن الحسن شيخ بنى هاشم وأشراف أهل المدينة أن جلسوا إليه ، وأحدق الناس به يأخذون عنه العلم والفقه وآداب السلوك .

ولما عرفت أمه أن حلقه إبنها قد اكتملت أحبت أن يرى زوجها بنفسه مابلغه ابنه من المكانة التى ترنو إليها أعناق السادة فاقترحت عليه أن يذهب إلى مسجد رسول الله يصلى فيه .

فلما دخل المسجد وأدى صلاته لمحت نظره حلقة هائلة وافرة بهرته عظمتها وهيبتها وما يتجلى فيها من الوقار والإجلال فقادته رجلاه إليها حتى وقف عليها ، فلما رآه إبنه نكس رأسه يوهمه أنه لم يره ، ولم يصدق الرجل أن هذا الجلال وتلك المهابة تشيع فى حلقة يتوسطها ابنه الذى خلفه حملا فى بطن أمه منذ سبعة وعشرين عاماً ، وأخذه الشك فمال على قرب رجل منه يسأله عن صاحب الحلقة قائلا : من هذا الرجل ؟

فجاءه الجواب : هذا ربيعة بن أبى عبد الرحمن .

فأدرك الرجل فرحة لم يكن يحلم بها ولم يكن يدور بخلده يوماً من الأيام أن الله سيمن عليه بولد مثل هذا يبلغ هذه المرتبة الرفيعة .

وأخذ يتمتم - لقد رفع الله إبنى - والبهجة تملأ جوانب نفسه وعاد إلى منزله ، وهو يحمد الله على ماهيأ له من الخير بعد تلك الغيبة الطويلة وأسعده بلقاء تلك الزوجة الصالحة الوفية وهذا الإبن الكريم الذى شرف الله قدره ورفع مقامه .

ولم يكد يصل إلى داره حتى ابتدر زوجته يزف إليها بشرى ما رأى من الفضل الذى أنعم الله به على ابنه . لقد رأيت ولدك على حالة ، مارأيت أحداً من أهل العلم والفقه عليها .

فأجابت الأم الصابرة العاقلة الرشيدة : أيما أحب إليك ؟ ثلاثون ألف دينار ؟ أو هذا الذى هو فيه ؟

فقال : لا ، والله ، بل هذا .

عند ذلك قالت الأم : لقد أنفقت المال كله عليه .

فقال الأب فرحاً جزلا : فوالله ماضيعته[1] .

رحلته إلى العراق :

كان أبو العباس السفاح قد استدعاه إلى العراق وعرض عليه القضاء ، ولما قدم عليه أمر له بجائزة فأبى ان يقبلها ، فأعطاه خمسة آلاف درهم

---

(١) وفيات الأعيان جـ ٥ ص ٢٩٥ / ٢٩٦ ، وتاريخ بغداد جـ ٨ ص ٤٢١ ، ٤٢٢

فأبى أن يقبلها ، ويبدو أن رحلته إلى العراق لم تكن محببة إليه فقد قال لمالك قبل أن يرحل : إن سمعت أنى حدثتهم شيئاً أو أفتيتهم فلا تعدنى شيئاً فكان عند قوله ، فقد لزم بيته حتى عاد .

وتوفى ربيعة سنة ١٣٦ فى المدينة بعد أن عاد إليها .

وبعض المؤرخين يقول إنه توفى بمدينة الهاشمية التى بناها السفاح .

رحم الله ربيعة وأكرم مثواه .

المراجع

١ ـ تاريخ بغداد جـ ٨

٢ ـ تهذيب التهذيب جـ ٣ ، جـ ٥

٣ ـ تذكرة الحفاظ جـ ١

٤ ـ وفيات الأعيان جـ ٥

٥ ـ العقد الفريد جـ ٤

٦ ـ تهذيب الأسماء واللغات جـ ١

أبو شبرمة عبد الله بن شبرمة القاضي

سنة ٧٢ هـ - ١٤٤ هـ

فقيه الكوفة أبو شبرمة عبد الله بن شبرمة الضبي القاضي كان عفيفاً حازماً عاقلا فقيهاً يشبه النساك وكان ثقة في الحديث شاعراً حسن الخلق جواداً .

كان هو وابن أبي ليلى يتزعمان فقهاء الكوفة.

وكان الثوري يقول : فقهاؤنا ابن شبرمة وابن أبي ليلى .

وكان إذا سئل : من مفتيكم يقول : ابن أبي ليلى وابن شبرمة .

وكان ابن شبرمة ممن يذهبون إلى القول بالرأي على عادة أكثر أهل العراق ، ويبدو أنه كان مولعاً بأمور الفقه واستخلاص الأحكام الفقهية وكان يعينه على ذلك حضور بديهة وسرعة في الجواب حتى قال يحيى بن بكير: مارأيت أسرع جواباً منه .

وكان من ولوعه بالفقه يقضي الليل يسمر مع أصحابه في الفقه حتى يطلع الفجر .

وقد روى ابن عساكر لقاء لإياس بن معاوية مع ابن شبرمة حينما توجه إياس إلى واسط وأن ابن شبرمة عرض على إياس في ذلك اليوم بضعة وسبعين مسألة اتفقا فيها إلا أربعة رده إياس فيها إلى رأيه ، ويبدو من مدار الحوار أن إياساً كان من أصحاب الأثر وأن ابن شبرمة كان من ذوي الرأي ، ويحسن بنا أن نورد نص الحوار كما جاء به ابن عساكر .

جلس بن شبرمة إلى إياس فقال : أتأذن لى أن أسألك ؟

فأجاب إياس : ما ارتبت بك حتى تستأذننى ، إننى لا أعيب القائل ، ولا يؤذينى الجليس ، فسل .

ثم إنه سأله عن بضع وسبعين مسألة فلم يختلفا إلا فى ثلاث أو أربع مسائل رجع فيها إلى رأى إياس .

ثم سأله إياس : ياابن شبرمة ، هل قرأت القرآن ؟

أجاب ابن شبرمة : نعم ، من أوله إلى آخره .

سأل إياس : فهل قرأت « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى » . . ؟

قال : نعم ، وما قبلها وما بعدها .

قال إياس : فهل وجدته أبقى لآل شبرمة شيئاً ينظرون فيه ؟

قال : لا .

قال إياس : إن للنسك فروعاً ، ذكر الصلاة والصوم والحج والجهاد ثم قال : إنى لا أعلمك تعلقت من النسك بشىء وأحسن من شىء فى يدك ، النظر فى الرأى[1] .

وتولى ابن شبرمة قضاء البصرة وكان كارهاً لتولى شىء للدولة فلما ذاقت نفسه حلاوة السلطان اشتد عليه فقد له بعد ما ركن إليه .

---

(١) ابن عساكر جـ ٣ ص ١٧٦ ، ١٧٧

ويروى صاحب العقد موقفين يتبين منهما حال ابن شبرمة قبل أن يلى القضاء وحاله بعد أن عزل

أما الموقف الأول فيروى عن ولد ابن شبرمة قال :

كنت جالساً مع أبى قبل أن يلى القضاء ، فمر به طارق مولى ابن زياد فى موكب نبيل ، وهو والى البصرة فلما رآه أبى تنفس الصعداء وقال :

أراها وإن كانت تحب كأنها   سحابة صيف عن قريب تقشع

ثم قال : اللهم لى دينى ولهم دنياهم .

فلما ابتلى بالقضاء قلت له : يا أبت أتذكر يوم طارق ؟

قال : يابنى ، إنهم يجدون خلفاً من أبيك ، وإن أباك لا يجد خلفاً منهم ، إن أباك حط فى أهوائهم وأكل من حلوائهم[1] .

أما الموقف الآخر فيقول : ولى ابن شبرمة قضاء البصرة وهو كاره ، فأحسن السيرة ، فلما عزل اجتمع إليه أهل خاصته ومودته ، فقال لهم : والله لقد وليت هذه الولاية وأنا كاره ، وعزلت عنها وأنا كاره ، وما بى فى ذلك إلا مخافة أن يلى هذه الوجوه من لا يعرف حقها ثم تمثل بقول الشاعر :

فما السجن أبكانى ولا القيد شفنى   ولا أننى من خشية الموت أجزع

ولكن أقواماً أخاف عليهم   إذا مت أن يعطوا الذى كنت أمنع[2]

ولابن شبرمة كلمات تحمل معنى الحكم فمن ذلك قوله :

إذا كان البدن سقيما لم ينجع فيه الطعام ولا الشراب ، وإذا كان القلب

---

(١) العقد الفريد جـ ١ ص ٦٥

(٢) « « جـ ٢ ص ١٨٩

مغرماً بحب الدنيا لم تنجع فيه الموعظة[1] .

وقوله : إنى لأعجب ممن يحتمى مخافة الضرر ، ولا يدع الذنوب مخافة النار[2]

وكان إذا نزلت به نازلة يقول : سحابة ثم تنقشع .

وكان فيه دعابة وظرف .

وكان أحياناً يكنى عما يريد على عادة الفصحاء والبلاغ ولا يفهم الناس مرادهم ، ومن هذا ما روى أنه دخل رجل على عيسى بن موسى وكان أميراً على الكوفة وعنده ابن شبرمة ، فسأله الأمير أتعرف هذا الرجل ؟ وكان قد رمى عنده بريبة .

فقال ابن شبرمة : إن له بيتاً وقدماً وشرفاً ، فخلى سبيله ، فلما انصرف ابن شبرمة سأله أصحابه :

أكنت تعرف هذا الرجل ؟

قال : لا ، ولكنى عرفت أن له بيتاً يأوى إليه وقدماً يمشى عليه، وشرفه أذناه وفكياه[3] .

ومما يروى عنه من الطرائف : أن رجلا حلف بالطلاق أن الحجاج فى النار ، ثم أتى زوجته فمنعته نفسها ، فأتى ابن شبرمة يستفتيه .

---

(١) العقد الفريد جـ ٢ ص ٩٥

(٢) « « جـ ٣ ص ١١٣

(٣) « « جـ ٢ ص ٨٨

فقال : يا ابن أخى ، امض فكن مع أهلك ، فإن الحجاج إن لم يكن من أهل النار ، فلا يضرك أن تزنى[١] .

وكان ابن شبرمة على جوده وشعره وفقهه ونسكه لم يسلم من عبث الشعراء والماجنين كما وقع للقضاة من قبله ومن بعده ، فقد حدث وسقط ابن شبرمة عن دابته فأصيبت رجله ، فدخل عليه يحيى بن نوفل الحميدى منشداً :

أقول غداة أتانى الخبير   فدس أحاديثه الهينمة
لك الويل من مخبر ما تقول ؟   أبن لى وعد عن الجمجمة
فقال خرجت وقاضى القضاة   مثقلة رجله مؤلمة
فقلت وضاقت على البلاد   وخفت الجلالة المعظمة
فغزوان حر وأم الوليد   إن الله عافى أبا شبرمه
جزاء لمعروفه عندنا   وما عتق عبد له أو أمة ؟

وكان فى المجلس جار ليحيى بن نوفل يعرف منزله ، فلما خرج تبعه وقال : ياأبا معمر ، من غزوان وأم الوليد ؟ فضحك وقال : أو ما تعرفهما ؟ هما سنوران فى البيت[٢] .

(١) العقد الفريد ج ٢ ص ٢٠٩
(٢) عيون الأخبار ج ٣ ص ٤٨

مراجع

١ - العبر ج ١

٢ - العقد الفريد ج ٢ ، ٣ ، ٤

٣ - عيون الأخبار ج ٣

٤ - تهذيب التهذيب ج ٥

٥ - تهذيب تاريخ ابن عساكر ج ٣

محمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى القاضى

توفى سنة ١٤٨ هـ

قاضى الكوفة وفقيهها كان من نظراء أبى حنيفة ومن أصحاب الرأى الذين يشار إليهم بالبنان وكان لاستقلاله بالرأى صدى مسموع حتى ألف الإمام أبو يوسف كتاباً سماه اختلاف أبى حنيفة وابن أبى ليلى تناول فيه المسائل التى اختلف فيها الإمامان الكبيران واختيار الرأى الذى يرتضيه منهما فمرة يختار رأى أبى حنيفة ومرة يختار رأى ابن أبى ليلى ، وانتداب إمام عظيم مثل أبى يوسف نفسه لتسجيل مسائل الخلاف بين أبى حنيفة وابن أبى ليلى يوحى بعلو المكانة والاحترام اللذين كان يحتلهما ابن أبى ليلى بين رجال الفكر فى عصره .

وقد أدهشت مقدرة ابن أبى ليلى الفقهية معاصريه من كبار العلماء حتى قال أحمد بن يونس عنه : كان أفقه أهل الدنيا[1] .

وقال القاضى أبو يوسف نفسه : ما ولى القضاء أحد أفقه فى دين الله ولا أقرأ لكتاب الله ولا أقول حقاً بالله ولا أعف عن الأموال من ابن أبى ليلى »[2] .

وقال الثورى : فقهاؤنا ابن أبى ليلى وابن شبرمة[3] .

---

(١) ميزان الاعتدال جـ ٣ ص ٨٧ ، تذكرة الحفاظ جـ ١ ص ١٦٢

(٢) طبقات القراء جـ ٢ ص ١٦٥

(٣) تهذيب جـ ٩ ص ٣٠٣

وكذلك ارتضى العلماء معرفته بالقرآن وأثنوا عليه حتى قال حمزة : تعلمنا جودة القراءة عند ابن أبى ليلى[١] .

وكان يجمع إلى معرفته بالفقه والقرآن العلم بالفروض إلى جانب إتصافه بالصدق والنبل وعلو الأخلاق ويروى فى هـذا ابن حجر أنه : كان عالماً بالقرآن وكان من أحسب الناس وكان جميلا نبيلا[٢] .

ويبدو أن اشتغاله بالفقه ثم بالقضاء بعد ذلك قـد أثر على حفظه حتى تردد كثير من أقوال رجال الحديث منبهاً على سوء حفظه وإن كان أحد لم يخالجه شك فى دينه وصدقه وأمانته وإتباعه السنة غير أنهم جرياً على حرصهم فى رواية الحديث نبهوا إلى ما ابتلى به من سوء الحفظ خشية من أن يتابع على ما يروى نظراً لمنزلته فى الفقه والقضاء من غير تمحيص .

وقد عبر كثير من علماء الحديث عن هـذا الجانب كل بطريقته الخاصة فبعضهم ينكر عليه كثرة الخطأ وبعضهم ينسب إليه سوء الحفظ لانشغاله بالقضاء وبعضهم ينفى عنه الإتهام بالكذب إنما ينكر عليه كثرة الخطأ ، ولا يمنع من كتابة حديثه إلا أنه لا يرتفع عنده إلى منزلة الاحتجاج به وأشد ما قيل فى شأنه ما رواه ابن حجر منسوباً لابن حبان قوله : كان فاحش الخطأ ردىء الحفظ ، فكثرت المناكير فى روايته[٣] .

ومهما اختلفت أقوال رجال الحديث فيه فإنهم إنما يعينون مكانته بين المحدثين إلا أنهم جميعاً يجمعون على دينه وصدقه وفقهه وعلمه .

---

(١) طبقات القراء جـ ٢ ص ١٦٥

(٢) تهذيب جـ ٩ ص ٣٠٢

(٣) تهذيب جـ ٩ ص ٣٠٣

وقد لخص العجلى آراء رجال الحديث فيه فقال : كان فقيهاً صاحب سنة صدوقاً جائز الحديث ، وكان عالماً بالقرآن وكان من أحسب الناس وكان جميلا نبيلا[١] .

أبوه عبد الرحمن بن أبي ليلى الأنصارى الكوفى الفقيه ولاه الحجاج قضاء الكوفة ثم عزله وضربه لأنه رفض أن يسب علياً رضى الله عنه واشترك فى ثورة ابن الأشعث ضد الحجاج ومات غريقاً فى دجيل فى موقعة دير الجماجم ، وهو من أوائل التابعين[٢] ولم يدرك ابنه الأخذ عنه .

وكان اسم أبي ليلى يساراً وهو من ولد أحيحة بن الجلاح ؟ وكان ابن شبرمة القاضى وغيره يدفعونه عن هذا النسب ، وكان الأمر قد فسد بينه وبين ابن شبرمة حتى قال فيه يرد عليه انتسابه وينكر صلاحيته للقضاء .

وكيف ترجى لفصل القضاء ولم تصب الحكم فى نفسكا
وتزعم أنك لابن الجلاح وهيهات دعواك من أصلاكا

وقد تولى القضاء لبنى أمية ثم لبنى العباس بعدهم حتى توفى عام ١٤٨ فولى أبو جعفر المنصور ابن أخيه مكانه[٣] .

وقد أخذ محمد بن أبي ليلى عن أخيه عيسى والشعبى والحكم ونافع وعمرو ابن مرة وعطاء وكان عطاء يجله ويعرف له فقهه وعلمه .

فقد روى عنه أبو حفص الأبار قال : دخلت على عطاء فجعل يسألنى

---

(١) تهذيب ج ٩ ص ٣٠٢

(٢) تذكرة الحفاظ ج ١ ص

(٣) المعارف لابن قتيبة ص ٤٩٤

وكأن أصحابه أنكروا ذلك ، فقال : وما تنكرون هو أعلم منى ؟[١] .

وممن أخذ عنه شعبة والسفيانان وزائدة ووكيع وغيرهم[٢] .

وقد قال عنه الذهبي وهو يترجم له الإمام العلم مفتى الكوفة وقاضيها أبو عبد الرحمن محمد بن أبى ليلى الفقيه المقرىء[٣] .

وتولى ابن أبى ليلى قضاء الكوفة سنة ١٣٢ لما كان واليا عليها عيسى ابن موسى .

هذه رواية الطبرى وابن كثير[٤] إلا أن ابن حجر يروى فى تهذيب التهذيب أن أول توليه القضاء حينما دعاه يوسف بن عمر الثقفى لبلى قضاء الكوفة[٥] .

ويقول ابن خلكان إنه ولى القضاء بالكوفة لبنى أمية وبنى العباس ٣٣ سنة وكان فقيها مفتيا وكانت العلاقة بين أبى حنيفة وابن أبى ليلى علاقة وحشة وعدم ارتياح ذلك أن أبا حنيفة كان ينقد بعض آراء ابن أبى ليلى ويخطئها على ملأ من أصحابه فأغضب ذلك ابن أبى ليلى فاستعدى على أبى حنيفة والى الكوفة الذى منعه من الفتيا والحكم الذى وصل بالعلاقة بين الرجلين إلى هذا الحد من الوحشة هو كما رواه ابن خلكان « أن ابن أبى ليلى انصرف من مجلسه (وكان يجلس للحكم فى المسجد) فسمع امرأة تقول لرجل :

( ) و (٢) و (٣) تذكرة الحفاظ ج ١ ص ١٦٣

(٤) تاريخ الامم والملوك ج ٦ ص ١١١ والبداية والنهاية ج ١٠ ص ٥٥

(٥) تهذيب التهذيب ج ٩ ص ٣٠٢

ياابن الزانيين ، فأمر بها فأخذت ، ورجع إلى مجلسه ، وأمر بهـا فضربت حدين ، وهى قائمة .

فبلغ ذلك أبا حنيفة فقال :

أخطأ القاضى فى هذه الواقعة فى ستة أشياء فى رجوعه من مجلسه بعد قيامه منه ، ولا ينبغى أن يرجع بعد أن قام منه فى الحال ، وفى ضربه الحد فى المسجد وقد نهى رسول الله عن إقامة الحدود فى المساجد، وفى ضربه المرأة قائمة ، وإنما تضرب النساء قاعدات كاسيات ، وفى ضربه إياها حدين ، وإنما يجب على القاذف إذا قذف جماعة بكلمة واحدة حد واحد ، ولو وجب أيضاً حدان لا يوالى بينهما ، بل يضرب أولا ثم يترك حتى يبرأ ألم الضرب الأول ، وفى إقامة الحد عليها بغير طالب .

فبلغ ذلك ابن أبى ليلى ، فسار إلى والى الكوفة وقال هاهنا شاب يقال له أبو حنيفة يعارضنى فى أحكامى ، ويفتى بخلاف حكمى ويشنع على بالخطأ ، فأريد أن تزجره عن ذلك ، فبعث إليه الوالى ومنعه من الفتيا[1] .

وقـد سارت شهرة ابن أبى ليلى بين الناس وعرف بينهم بالذكاء والفهم والقدرة على معرفة المعضلات حتى صار العامة يتندرون بذلك فيما بينهم ويعبرون عن عدم رضاهم عن أصحاب السلطة بصورة لا توقعهم فى الحرج ولا تعرضهم للمؤاخذة والمساءلة وينبىء عن ذلك النادرة التى رواها الحصرى فى كتابه جمع الجواهر قال : أتى رجل نخاساً فقال : اشتر لى حماراً ليس بالصغير المحتقر ، ولا الكبير المشتهر ، إن أشبعته شكر ، وإن أجعته صبر ، وإن خلا الطريق تدفق ، وإن كثر الزحام ترفق ، لا يصدم

(١) وفيات الأعيان جـ ص

ب السوارى ، ولا يدخل بى تحت البوارى ، إن ركبته هام ، وإن ركبه غيرى نام .

فقال له النخاس : أنظرنى قليلا ، فإن مسخ الله ابن أبى ليلى القاضى حماراً اشتريته لك »(١) .

وكان ابن أبى ليلى وسوار بن عبد الله أول من سأل البينة على كتاب القاضى وقد استمر على القضاء مدة طويلة حتى تولى القضاء بعد ابن بلته عبيدة وفى خلال توليه القضاء جرت له أحداث منها ما هو طريف يثير الدهشة ويكشف عن بعض الجوانب الغريبة فى النفس الإنسانية .

وأعجب هذه الأحداث ما رواه صاحب جمع الجواهر قال : بينا ابن أبى ليلى فى مجلس القضاء إذ تقدم إليه امرأتان : عجوز وشابة ، فقالت الشابة : أصلح الله القاضى ، إنى امرأة مبدنة وقد بهرنى النفس ، فإن رأى القاضى أن يأذن لى فأحسر عن وجهى فليفعل .

فقالت العجوز : أصلح الله القاضى ، إنها من أحسن الناس وجهاً ، وإنما تريد أن تخدع القاضى لا أمتعها الله بما وهبها من الجمال .

فقال لها ابن أبى ليلى : إذا أنت شددت قناعك فشأنك ووجهك ، فحسرت الفتاة عن وجه جميل ، ثم قالت : أصلح الله القاضى ، إن هذه عمتى ، وأنا أسميها أمى لكبر سنها ، وإن أبى مات ، وخلف مالا وخلفنى فى حجرها ، فجعلت تمونى وتحسن التدبير فى المال وتوفيره ، على أنى إذ بلغت مبلغ النساء خطبنى ابن عم لى فزوجتنى منه ، فكان بى وبه من الحب مالا يوقف على صفته .

---

(١) جمع الجواهر فى الملح والنوادر ص ١٨٧

ثم إن ابنة لعمتى أدركت فجعلت هذه ترغب زوجى فيها فقالت نفسه إليها فخطبها . .

فقالت : لست أزوجكها حتى تجعل أمر بنت أخى فى يدى .

فقال لها : قد فعلت .

فلم أشعر حتى أتانى رسولها فقال : عمتك تقرئك السلام وتقول لك ؟ إن زوجك خطب ابنتى ، وإنى أبيت أن أزوجها منه حتى يجعل أمرك فى يدى ، ففعل ذلك فأنت طالق ، فحمدت الله تعالى على مابليت به ، وإن زوج عمتى هذه قدم من سفر ، فسألنى عن قصتى فأخبرته.

فقال : تزوجين نفسك ؟

فقلت : نعم ، على أن تجعل أمر عمتى فى يدى .

قال لى : فما تصنعين إذن ؟

قلت : ذلك إلى ، إما أن أعفو وإما أن أقتص .

قال : قد فعلت .

فأرسلت إلى عمتى : إن زوجك خطبنى ، وإنى أبيت عليه حتى يجعل أمرك فى يدى ، ففعل ، فأنت طالق .

فضحك ابن أبى ليلى .

فقالت العجوز : لا تضحك أيها القاضى ، فالذى بقى أكثر وأعظم .

فقالت الشابة : ثم إن زوج عمتى مات ، فجعلت تخاصمنى فى ميراثه ، فقلت لها : هو زوجى ، وأنا أحق بميراثه .

فأقرت بى ابن عمى ووكلته بخصومتى ففعل .

فقلت : ياابن العم، إن الحق لايستحى منه ، وقد صلحت لك إذ نكحت زوجاً غيرك ، فهل لك فى مراجعتى ؟

فقال : كان ما كان ، ولا ذنب لى فيه ، بل كنا على أشد رغبة وأعظم محبة، ثم قال : أو تفعلين ؟

قلت : على أن تجعل أمر بنت عمتى بيدى .

قال : قد فعلت .

فارسلت إلى بنت عمتى أن زوجك خطبنى ، وأنى أبيت عليه حتى يجعل أمرك فى يدى ، ففعل ، فأنت طالق .

فقالت العجوز : أصلح الله القاضى ، أيحل هذا ، أطلق أنا وابنتى ؟

فقال ابن أبى ليلى : نعم بالتعس والنكس لك .

ثم ركب إلى المنصور فأخبره حتى ضحك ، وفحص برجليه ، وقال : أبعد الله العجوز ولا فرج عنها(١) .

ومن آراء ابن أبى ليلى أنه كان يرى أن ماأقرع فيه رسول الله فهو حق ، وما لم يقرع فيه فهو قار(٢) .

وقد ابتلى ابن أبى ليلى فى زمانه كما ابتلى غيره من القضاة بذوى الألسن الحادة من الشعراء والمجان فاستعمل الكياسة فى مداراتهم والتخلص من سطوة ألسنتهم من غير تضييع للحقوق ولا جناية على المبادىء الفقهية التى يحتكم

---

(١) جمع الجواهر ص ١٨٦، ١٨٧

(٢) ميزان الاعتدال ج ٣ ص ٨٨

إليها فى قضائه وفصله بين الناس ، وممن ابتلى بهم ابن أبى ليلى أبو دلامة فقد شهد لامرأة على حمار هو ورجل آخر من أصحاب القاضى ، فعدل الرجل ، ولم يعدل أبا دلامة .

فقال القاضى للمرأة : زيديني شهوداً . فأتت المرأة أبا دلامة فأخبرته ، فأقبل على ابن أبى ليلى منشداً :

إن الناس غطونى تغطيت عنهم　　وإن بحثوا عنى ففيهم مباحث
وإن حفروا بِئرى حفرت بئارهم　　ليعلم قومى كيف تلك النبائث

عند ذلك قال ابن أبى ليلى : يا أبا دلامة ، قد أجزنا شهادتك وبعث إلى المرأة فقال لها : كم ثمن حمارك ؟

قالت : أربعمائة درهم ، فأعطاها إياها[1] .

وتوفى ابن أبى ليلى فى شهر رمضان سنة ١٤٨ هـ

رحمه الله وأجزل مثوبته .

---

(١) تاريخ بغداد جـ ٨ ص ٤٩٠

مراجع

١ ـ جمع الجواهر فى الملح والنوادر للحصرى
٢ ـ تاريخ بغداد جـ ٨
٣ ـ تهذيب التهذيب جـ ٩
٤ ـ تذكرة الحفاظ جـ ١
٥ ـ غاية النهاية فى طبقات القراء جـ ٢
٦ ـ تاريخ الطبرى جـ ٦
٧ ـ اختلاف أبى حنيفة وابن أبى ليلى
٨ ـ ميزان الاعتدال جـ ٣
٩ ـ العبر جـ ١
١٠ ـ وفيات الأعيان
١١ ـ المعارف لابن قتيبة

شريك بن عبد الله القاضى

٩٥ هـ - ١٧٨ هـ

ذاك رجل بدت عليه مخايل الطموح منذ الصغر ، والتطلع إلى علو الهمة منذ نعومة أظفاره ، فقد أخذ نفسه بما يرفع مكانتها ، ويعلى شأنها .

ذاق فى طفولته وصباه مرارة اليتم ، وتمرس مبكراً بالسعى على الرزق والتفانى فى تحصيل العلم ، حتى أوصله سعيه إلى مجلس القضاء ولم يهب أن يحابيه رجال الدولة ، ويقف منهم موقف الخصومة إذا سولت لهم أنفسهم التدخل فى شئونه أو النيل من استقلال القضاء وعزة القاضى ، وحسبك لتدرك علو منزلته أن تعرف أن الرشيد كان بالحيرة لما بلغه وفاة شريك ، فقصده ليقوم بالصلاة عليه إلا أنه وجد الصلاة قد أقيمت .

نسبه ونشأته :

هو شريك بن عبد الله النخعى الكوفى القاضى ، ولد ببخارى عام خمسة وتسعين هجرية ، وقام على شئونه أحد بنى أعمامه ، وذهب إلى بنى عمومة له ينزلون فى منطقة تعرف « بنهر صرصر » وهناك كان يجلس إلى معلم لهم ، فتعلق قلبه بالقرآن ، وتاقت نفسه إلى المزيد من المعرفة ، وكان قد بلغ مبلغاً يستطيع فيه أن يحاج عن نفسه .

ثم رأى أن يرحل إلى الكوفة يتعلم فيها السنة ، ويتعرف إلى قومه هناك . فتوجه إلى شيخ بنى عمومته يسأله أن يسمح له بالذهاب إلى الكوفة .

وهناك بدأ حياة التحصيل والعمل المضنى ، فقد كان يعمل فى ضرب

اللبن حتى يتوفر له من المال ما يشترى به أوراقه وأقلامه ليقيد ما يتلقاه من العلم .

وقد أمدت هـذه الحياة الكادحة شريكا بطاقات من التحمل والجلد ، جعلته يتعود الاعتماد على النفس ، واكتساب تجارب من الحياة أهلته لما وصل إليه بعد من منزلة رفيعة ، ومكانة سامية حتى لفت ما امتاز به من سمو النفس وحسن الأدب أحد شيوخ قبيلته النخع ، فسأله عمن أدبه حتى أحل نفسه هذا المحل الرفيع .

ويحسن بنا أن نلق بأسماعنا إلى الحوار الذى دار بين الرجلين وهو يكشف عن مدى الإعجاب الذى كان يتمتع به شريك بين قومه .

فقد مر شريك القاضى بالمستنير بن عمرو النخعى ، فجلس إليه فسأله : يا أبا عبد الله ، من أدبك ؟

أجاب شريك : أدبتنى نفسى والله ، ولدت بخراسان ببخارى ، فحملنى ابن عم لنا حتى طرحنى إلى بنى عم لى « بنهر صرصر » فكنت أجلس إلى معلم لهم ، فتعلق قلبى تعلم القرآن ، فجئت إلى شيخهم فقلت :

ياعماه ، الذى كنت تجريه على هاهنا أجره على بالكوفة ، أعرف به السنة وقومى ، ففعل .

فكنت بالكوفة أضرب اللبن وأبيعه ، وأشترى دفاتر وطروسا ، فأكتب فيها العلم والحديث ، ثم طلبت الفقه ، فبلغت ما ترى .

فالتفت المستنير بن عمرو إلى ولده قائلا : سمعتم قول ابن عمكم ، وقد أكثرت عليكم فى الأدب ، ولا أراكم تفلحون فيه ، فليؤدب كل رجل منكم نفسه ، فن أحسن فلها ، ومن أساء فعليها[1] .

---

(١) تاريخ بغداد جـ ٩ ص ٢٨٠

وقد طلب الحديث حتى صار فيه رأساً خاصة فى حديث أهل بلده ، وقد أخذ عنه الحديث إسحاق بن يوسف الأزرق الواسطى ، حتى ليقال إنه سمع منه تسعة آلاف حديث[١] .

وقد بلغ من الثقة به فى حديث الكوفة أن قال عنه ابن المبارك : « إنه أعلم بحديث الكوفة من سفيان »[٢] .

ولكن يبدو أن حفظ شريك قد تأثر بعد اشتغاله بالقضاء ، وعلى هذا يحمل قول من تحدث عن سوء حفظه ؛ إلا أن أحداً لا ينازع فى ثقته وصدقه .

فقد حدث محمد بن أحمد بن يعقوب عن جده قال : « شريك بن عبد الله ثقة صدوق ، صحيح الكتاب ، ردىء الحفظ مضطربه »[٣] .

وقريب من هـــذا ما روى عن صالح بن محمد قال « شريك صدوق ولما ولى القضاء اضطرب حفظه »[٤] .

وقد أدرك شريك هذا من نفسه ، فامتنع عن التحديث صيانة لمكانته العلمية ، وحرصاً على أن لا يرد عليه ما يقول ، وهذا يفسره لنا بوضوح عدم استجابته لأبى عبيد الله وزير المهدى لما طلب إليه أن يسمع منه بعض الأحاديث فامتنع .

وقد روى هذه الحادثة الخطيب البغدادى فقال : « قال أبو عبيد الله وزير المهدى لشريك القاضى : أردت أن أسمع منك أحاديث .

---

(١) و (٢) تاريخ بغداد جـ ٩ ص ٢٨١

(٣) و (٤) نفس المصدر جـ ٩ ص ٢٨٥

فقال : لقد اختلطت على أحاديثى ، وما أدرى كيف هى ؟

فألح عليه عبيد الله فقال : حدثنا بما تحفظ ودع مالا تحفظ .

فقال : أخاف أن تخرج أحاديثى ، ويضرب بها وجهى[١] .

وقد قدم بغداد مرات ، وحدث بها كما يروى الخطيب .

فقهه وفهمه :

كان شريك يجمع إلى علمه بالسنة الفقه والفهم والذكاء والفطنة ، وكانت كياسته وأدبه يستوليان على كل من يجالسه حتى قال أحمد الزبيرى : « كنت إذا جلست إلى الحسن بن صالح ، رجعت ، وقد نغص على ليلتى ، وكنت إذا جلست إلى سفيان الثورى رجعت ، وقد هممت أن أعمل عملا صالحاً ، وكنت إذا جلست إلى شريك بن عبد الله رجعت ، وقد استفدت أدباً حسناً »[٢] .

وكان عبد الله بن المبارك ممن تلقوا عنه ، وممن يثقون فى علمه ، حتى أنه قال يوماً ليحيى الحمانى : « أما يكفيك علم شريك »[٣] .

تفضيله لعلى :

وكان شريك يميل إلى تفضيل على رضى الله عنه من غير غض ولا نيل من مكانة غيره من الصحابة ، وخاصة الشيخين أبا بكر وعمر .

---

(١) تاريخ بغداد جـ ص ٢٨٥

(٢) نفس المصدر جـ ٩ ص ٢٨١

(٣) نفس المصدر جـ ٩ ص ٢٨٠

وقد تعرض بسبب هذا الميل إلى سوء الظن به من الخليفة العباسي المهدي، واستغل منافسوه ممن يبغضون العلويين هـــذا الميل، وأرادوا أن يسيئوا علاقة الخليفة به جهد استطاعتهم حتى أفلحوا فى النهاية إلى إيغار صدر المهدى عليه فعزله عن القضاء مع أنه الذى سعى جهده فى أن يوليه من قبل .

وقد كان شريك حقاً شديد الإعجاب بعلى رضى الله عنه ، فقـد كان له جليس من بنى أمية يتردد عليه ويخوض معه فى أحاديث العلم ، فجرى فى المجلس ذكر على بن أبى طالب كرم الله وجهه ، فأفاض شريك فى ذكر مناقبه ، وتعداد فضائله ، فعلق الأموى قائلا : نعم الرجل على .

ولم يكد شريك يسمع مقالة الأموى حتى استبد به الغضب وقال فى حدة: ألعلى يقال نعم الرجل ، ولا يزاد على ذلك ؟

وكان الرجل عاقلا فأمسك حتى هدأ غضب شريك ، ثم قال : ياأبا عبد الله ، ألم يقل الله تعالى فى الإخبار عن نفسه : « فقدرنا فنعم القادرون » .

وقال فى أيوب عليه السلام : « إنا وجدناه صابراً نعم العبد إنه أواب »

وقال فى سليمان : « ووهبنا لداود سليمان نعم العبد » .

أفلا ترضى لعلى مارضى الله به لنفسه ولأنبيائه ؟

فتنبه شريك عند ذلك لخطئه ووهمه ، وزادت مكانة ذلك الأموى فى قلبه[1] .

وقد كان هـذا الميل منه لعلى سبباً لتباعد الشقة بينه وبين عبد الله

---

(١) وفيات الأعيان جـ ٦ ص ٢٦١ ، ٢٦٢ نشر الرفاعى .

ابن مصعب الزبيرى ، وكان الزبيريون عموماً يميلون عن العلويين ، وزادت الفجوة بين الرجلين حينما كان شريك قاضياً على الكوفة ، فحكم على وكيل لعبد الله بن مصعب بحكم أغضب عبد الله ، فلما لقيه ببغداد قال له : ما حكمت على وكيلى بالحق .

قال : ومن أنت ؟

قال : من لا تنكر .

قال : فقد نكرتك أشد التنكير .

قال : عبد الله بن مصعب .

قال : لا كثير ولا طيب .

قال : وكيف لا تقول هذا ، وأنت تبغض الشيخين !

قال : ومن الشيخان ؟

قال : أبو بكر وعمر .

قال : والله ، ماأبغض أباك ، وهو دونهما ، فكيف أبغضهما ؟[1]

وقد تكرر هذا التعرض لشريك من الزبيرى حتى نقله إلى مجالس الوزارة والخلافة ، فقد روى الخطيب البغدادى أن شريكا استأذن على يحيى ابن خالد ، وعنــــده رجل من ولد الزبير ، فقال الزبيرى ليحيى بن خالد : أصلح الله الأمير ، إيذن لى فى كلام شريك .

فقال : إنك لا تطيقه .

(١) تاريخ بغداد ج ٩ ص ٢٨٧

فقال : إيذن لى فى كلامه .

قال : شأنك .

فلما دخل شريك وجلس ، قال الزبيرى : ياأبا عبد الله إن الناس يزعمون أنك تسب أبا بكر وعمر .

فأطرق ملياً ثم رفع رأسه ، فقال : والله مااستحللت ذلك من أبيك ، وكان أول من نسكث فى الإسلام ، كيف أستحله من أبى بكر وعمر(١) .

ويبدو أن الزبيرى لم يكتف بذلك ، بل نقل هـذا الاتهام إلى مسامع المهدى ، وأوحى له أن شريكا يقول بالإمامة ، ويدعو إلى جعلها فى أبناء على حتى أوغر صدره عليه ، وبدرت من المهدى إلى شريك بادوات ، لو لم يخرج منها بكياسته لأودت بحياته .

من ذلك أنه أحضر مرة لمجلس الخليفة بعد أن وشى به أنه لا يرى الصلاة خلفه ، وتكلم المهدى معه ، وكان من جملة ماقاله له : أيا ابن الزانية .

فقال له شريك : مه ياأمير المؤمنين ، فقد كانت صوامة قوامة .

فقال له : يازنديق ، لأقتلنك .

فضحك شريك وقال : يا أمير المؤمنين ، إن للزنادقة علامات يعرفون بها ، شربهم القهوات ، واتخاذهم القينات(٢) .

وقد أورد الخطيب البغدادى هـذه المحاورة باختلاف عما هنا وزيادة تشير إلى أنها على وجه التعريض والتلميح ، لا التصريح بالاتهام .

---

(١) تاريخ بغداد جـ ٩ ص ٢٨٧

(٢) البداية والنهاية جـ ١٠ ص ١٥٣

يقول فيها المهدى لشريك : لكأنى أرى رأس زنديق يضرب الساعة .

فقال شريك : يا أمير المؤمنين ، إن للزنادقة علامات ؛ تركهم الجماعات وشربهم القهوات ، وتخلفهم عن الجماعات .

فقال المهدى : ياأبا عبد الله ، لم نعنك بهذا .

ولئن أسكت شريك المهدى بقدرة منطقه وحضور جوابه فإن السعاية قد عملت عملها فى نفس المهدى إلى جانب ما وصل إليه من شكوى رجال الدولة من شدة شريك عليهم ، حتى إنه واجهه يوماً بأنه لا يصلح للقضاء لخلاف الجماعة والقول بالإمامة إلا أن مقدرة شريك قد أطفأت غضب المهدى وأسكتته فلم يستطع أن يواجهه بأمر العزل فى ذلك المجلس .

أما الحوار الذى دار بينهما ، فإليك هو :

قال المهدى لشريك : ما ينبغى لك أن تقلد الحكم بين المسلمين .

قال شريك مستفهماً : ولم ؟

قال : لخلافك على الجماعة ، وقولك بالإمامة .

قال : أما قولك : بخلافك على الجماعة ، فإن الجماعة أخذت دينى ، لكيف أخالفهم ، وهم أصل فى دينى ؟

وأما قولك : وقولك بالإمامة ، فما أعرف إلا كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم .

وأما قولك : مثلك ما يقلد الحكم بين المسلمين ، فهذا شىء أنتم فعلتموه ، فإن كان خطأ ، فاستغفروا الله منه ، وإن كان صواباً فأمسكوا عليه .

قال : ماتقول فى على بن أبى طالب ؟

قال : ماقال فيه جدك العباس وعبد الله .

قال : وماقالا فيه ؟

قال : فأما العباس فمات وعلى عنده أفضل الصحابة ، وقد كان يرى كبراء المهاجرين يسألونه عما ينزل من النوازل ، وما احتاج هو إلى أحد حتى لحق بالله .

وأما عبد الله فإنه كان يضرب بين يديه بسيفين ، وكان فى حروبه رأساً متبعاً ، وقائداً مطاعاً ، فلو كانت إمامته على جور كان أول من يقعد عنها أبوك لعلمه بدين الله ، وفقهه فى أحكام الله .

فسكت المهدى وأطرق[١] .

وهذا الحوار يدل على مقدار ما كان يتمتع به شريك من شجاعة القلب وحضور الجواب والقدرة على إقناع المجادل بما يشعره أن ما يراه هو إنما هو الرأى الذى يجب أن يعتنقه ويؤمن به ، ولا أدل على ذلك من عرضه لموقف عبد الله من على مما جعل الخليفة لا يقدر على الرد أو يجرؤ على الاتهام .

وقد يظن المرء أن هذا التحرش من المهدى بشريك سببه أن غيره ممن سبقه من الخلفاء قد أتى به إلى منصة القضاء ، وأنه لم يكن صاحب رأى فى اختياره ، ولهذا يريد أن يأتى برجل يثق فيه ويطمئن إليه ، ولكن الحقيقة أن المهدى هو الذى أراده على القضاء ، وأقعده فى مجلسه على الرغم منه بعد أن عرض عليه مرات فأبى واعتذر .

---

١) تاريخ بغداد جـ ٩ ص ٢٩٢

وفيما نورده من الأحداث إثبات لايقبل الشك ، ولكنها طبيعة الحاكم، وتقلب عواطفه تبعاً لما يلقيه إليه أعوانه والمحيطون به ، على أن المهدى كان من أقرب بنى العباس ميلا إلى العدل ، وتمسكا بشعائر الدين والحرص عليه .

كيف ولى شريك القضاء :

كان شريك وأمثاله من العلماء يتجنبون قدر المستطاع العمل فى دواوين الدولة خشية أن يتعرضوا لما لا يرضون عنه ، وقد استطاع شريك مع مابلغ من مكانة أن يجنب نفسه ذلك إلى حين ، ويبدو أنه كان يدافع مثل هذه العروض بشىء من اللباقة والكياسة اللذين عرف بهما ، حتى دخل على المهدى يوماً فقال له : لابد أن تجيبنى من خصلة إلى ثلاث خصال .

قال : وما هن ، يا أمير المؤمنين ؟

قال : إما أن تلى القضاء أو تحدث ولدى وتعلمهم ، أو تأكل عندى أكلة فأفكر ساعة ثم قال : الأكلة أخفهن على نفسى .

فأجلسه وتقدم إلى الطباخ أن يصلح له ألواناً من المخ المعقود بالسكر والطبرزد والعسل وغير ذلك ، فعمل ما أوصى به المهدى وقدمه إلى شريك فأكل .

فلما فرغ من غدائه ، قال له القيم على المطبخ : والله ياأمير المؤمنين ليس يفلح الشيخ بعد هذه الأكلة أبداً .

ويعلق الفضل بن الربيع على هذا الخبر فيقول : فحدثهم ، والله ، شريك بعد ذلك ، وعلم أولادهم ، وولى القضاء لهم .

ولقد كتب له برزقه على الصيرفى ، فضايقه فى النقد .

فقال له الصيرفى : إنك لم تبع به بزا .

فقال شريكٌ : بل ، والله بعت به أكثر من البز ، بعت به دينى[١] .

وهذا الخبر ينبيء — ولا شك — أن شريكا كان يتأبى عن الاستجابة إلى عمل فى الدولة ، أو فى قصر الخلافة ، فلما ضيق الخليفة عليه ، وذاق طعم النعيم ، مالت نفسه إلى الأخذ منه بطرف ، فلم يستطع أن يستمر على إبائه ، فأجاب أولا إلى تحديث أبناء الخليفة ثم تعليمهم ، وهذا يعنى أنه قام بهاتين الوظيفتين قبل أن يلى القضاء ، ثم جلس بعد ذلك للقضاء بين الناس ، وإن كان يفهم من خبر رواه الخطيب أنه أرغم على الجلوس القضاء أولا ، ثم طابت نفسه بعد ذلك ، واستمرأ حلاوة الجاه وأبهة السلطان .

يروى الخطيب عن يحيى بن يمان قوله : لما ولى شريك القضاء أكره على ذلك ، وأقعد معه جماعة من الشرط يحفظونه ، ثم طاب للشيخ ، فقعد من نفسه[٢] .

ولا شك أن شريكا كان يدرك أن عمله الجديد سيضطره إلى المجاملة على حساب دينه ، وإلى التساهل فى بعض الأمور التى لم يكن يتساهل فيها وفى رده على الصراف فى الخبر قبل السابق أبلغ دليل على ذلك . وإن كانوا قد شرطوا له أن لا يتدخل أحد فى أمره .

---

(١) مروج الذهب ج ١ ص ٢٢٤ ، وفيات الأعيان ج ٦ ص ٢٦٠ و ٢٦١

(٢) تاريخ بغداد ج ٦ ص ٢٨١

موقف إخوانه منه :

ولهذا لم يقبل إخوان شريك منه ومعاصروه دعواه أنه أكره على القضاء، وكان سفيان الثورى أشد إخوانه عليه إنكاراً ، فقد كانا متصاحبين ، فلما بلغه أن شريكا قد طابت نفسه بالجلوس للقضاء جاء فتراءى له ، فلما رآه قام إليه وعظمه وأكرمه ثم قال :

ياأبا عبد الله ، هل من حاجة ؟

قال : نعم ، مسألة .

قال : أو ليس عندك من العلم ما يجزيك ؟

قال : أحببت أن أذكرك بها .

قال : قل .

قال : ماتقول فى امرأة جاءت فجلست على باب رجل ، ففتح الرجل الباب ، فاحتملها ففجر بها ، لن تحد منهما ؟

فقال له : دونها ، لأنها مغصوبة .

قال : فإنه لما كان من الغد جاءت ، فتزينت ، وتبخرت ، وجلست على ذلك الباب ، ففتح الرجل الباب ، فرآها ، فاحتملها ففجر بها ، لمن تحد منهما ؟

قال : أحدهما جميعاً — لأنها جاءت من نفسها ، وقد عرفت الخبر بالأمس .

قال : أنت كان عذرك حيث كان الشرط يحفظونك ، اليوم أى عذر لك ؟

قال : ياأبا عبد الله أكلمك ؟

قال : ماكان الله ليرانى أكلمك ، أو تتوب ، ووثب فلم يكلمه حتى مات[١] .

وكان الثورى يعرف مكانة شريك ، ويحرص على أن يحول بينه وبين التورط فى مظالم الحكم ، ومشاكل السلطان .

ينبىء عن ذلك أنه كان إذا ذكره يقول : أى رجل كان لولم يفسدوه[٢] .

ومسلك الثورى مع شريك فى إنكاره عليه رضاه بالجلوس للقضاء مسلك الناصح الأمين الذى لا يريد أن يشنع عليه ، أو يسىء إليه لذلك جاءه ، وضرب له المثل الذى لا يستطيع نقضه ، ومن الجلى أن سفيان كان حريصاً على أن ينبه شريكا بلطف إلى طريق النجاة كما يراه .

ولكن المنكرين على شريك توليه القضاء لم يكونوا جميعاً مثل سفيان رحمه الله ، وإن كان منهم من يقرب منه فى موقفه .

وهم يرون أن شريكا إن لم يستطع النجاة بنفسه من الجلوس للقضاء فإنه يستطيع أن يمتنع عن أخذ راتب على هذا العمل ، وقد قال له بعض إخوانه لما اعتذر له بأنه أكره على قبول القضاء : هل أكرهت على أخذ الرزق ؟[٣]

تعريض الشعراء به :

غير أن كل المنكرين على شريك لم يسلكوا معه فى إنكارهم ذلك

---

(١) و (٢) و (٣) تاريخ بغداد ج ٩ ص ٢٨٦ ، ٢٨٧

المسلك الناصح المهذب الوقور ؛ بل اتخذ بعضهم من ذلك فرصة التشنيع عليه حتى بلغ الأمر أن هجاه أحد الشعراء بقوله :

فهلا ، فررت ، وهلا اغتربت إلى بلد به المحشر
كما فر سفيان من قومه إلى بلد الله والمشعر
فلاذ برب له مانع ومن يحفظ الله لا يخفر
أراك ركنت إلى الأزرق ولبس العمامة والمنظر
فبخ بخ من مثلكم يا شريك إذا ما علوت على المنبر
وقد طرحوا لك حتى لقطت كما يلقط الطير فى الأندر[1]

وترصد الناقدون خطى شريك ، وأخذوا يردون عليه دعوى الإكراه على القضاء .

وكان قد ولى قضاء الكوفة ، وكانت الخيزران قد خرجت للحج ، فلما حان موعد عودتها خرج يتلقاها حتى بلغ مكاناً قريباً من القادسية ، يسمى شاهى ، وأبطأ ركب الخيزران ، فأقام ينتظرها ثلاثاً ، حتى يبس خبزه ، فجعل يبله بالماء ، ويأكله ، ولاحظ مسلكه هذا شاعر مثل العلاء ابن المنهال ، ورأى أن مايفعله لايتفق مع دعواه التى يطلقها من أنهم أكرهوه على القضاء ، فقال فى ذلك :

فإن كان الذى قد قلت حقاً بأن قد أكرهوك على القضاء
فما لك موضعاً فى كل يوم تلقى من يحج من النساء
مقيم فى قرى شاهى ثلاثاً بلا زاد سوى كسر وماء[2]

---

(١) تاريخ بغداد جـ ٩ ص ٢٨٧

(٢) تاريخ بغداد جـ ٩ ص ٢٨٥

عادته حين يجلس القضاء :

اعتاد شريك أن لا يجلس للحكم حتى يتناول غداءه ، ثم يأتى المسجد فيصلى ركعتين ، ثم يخرج رقعة من قطره فينظر فيها ، ثم يدعو بالخصوم فيحكم بينهم .

وقد أثار حب الاستطلاع من المحيطين به المقربين منه أن يعرفوا ماذا فى هذه الرقعة ، التى تعود أن ينظر فيها قبل دخوله فى أمور القضاء والحكم بين الناس ، فأخذوا يحتالون للأمر ، وأغروا ابن شريك أن يساعدهم على معرفة ما فى هذه الرقعة ، فاحتال لهم حتى نظر فيها ، وأخرجها إليهم ، فإذا مكتوب فيها : ياشريك بن عبد الله ، اذكر الصراط وحدته ، ياشريك ابن عبد الله ، اذكر الموقف بين يدى الله تعالى[1] . فإن دلت هذه الرقعة على شيء ، فإنما تدل على إدراك الرجل لمدى المسئولية الملقاة على عاتقه ، وأنه كان يتحرى العدل جهد طاقته ، ويحرص على أن يقف مع المظلوم حتى يأخذ له حقه من ظالمه ، ولو كان الأمير أو من رجال حاشيته وبلاط الخلافة ، وسنرى فيما نورد من أحكامه أنه كان حريصاً على ذلك كل الحرص ، ولم يبال فى تحقيق هذا المبدأ أن يتعرض لغضب الأمير أو عدم رضى الخليفة ومن حوله .

ولعل ذلك كان السبب الذى اقتنع به بينه وبين نفسه ، حينما رأى أن يستمر فى القضاء ، وبعد أن زال الإكراه عليه ، ولعله كان يريد أن يفضى بهذا إلى صاحبه سفيان الثورى حينما جاءه منكراً عليه توليه للقضاء ، إلا أن سفيان لم يدع له فرصة يفضى فيها إليه بما يريد .

---

(١) تاريخ بغداد جـ ٩ ص ٢٩٤

والحق أن ما أثر عن شريك فى مجلس القضاء ينبىء عن تحريه الدقيق لتحقيق العدل ، وبعده التام عن الجور والميل ، مهما كان المطلوب منه الحق صاحب جاه وسلطان ، وكل مواقفه تنبىء بوضوح عن هذا المسلك .

وإليك طائفة من الأحكام التى تضع شريكا فى قمة النزاهة والجرأة والشجاعة ، وعدم المبالاة بلوم لائم مادام الحق قد اتضح له معالمه شىء لا نظير له فى تاريخ القضاء الإنسانى كله إسلاميه وغير إسلاميه ، ولا نظن أن أحداً يقرأ مانعرض من أحكامه المتعلقة برجال الحكم وأصحاب الدولة إلا ويقر بأن الرجل فى القمة عدلا ونزاهة واستقامة رأى وشجاعة فى إصدار الحكم مادام قد اتضح له وجه الصواب ، ومن ذلك النماذج التالية :

أمثلة من قضاياه :

حدث عمر بن الهياج بن سعيد أخى مجالد بن سعيد قال : كنت من صحابة شريك ، فأتيته يوماً ، وهو فى منزله باكراً ، فخرج إلى فى فرو ليس تحته قميص ، عليه كساء ، فقلت له : قد أضحيت عن مجلس الحكم .

فقال : غسلت ثيابى أمس ، فلم تجف ، فأنا أنتظر جفوفها ، اجلس فجلست ، فجعلنا نتذاكر (باب العبد يتزوج بغير إذن مواليه) .

فقال : ما عندك فيه ؟ ماتقول فيه ؟

وكانت الخيزران قد وجهت رجلا نصرانياً على الطراز بالكوفة ، وكتب إلى موسى بن عيسى أن لا يعصى له أمراً ، فكان مطاعاً بالكوفة ، فخرج علينا ذات يوم من زقاق يخرج إلى النخع معه جماعة من أصحابه عليه جبة خز وطيلسان ، على برذون فاره ، وإذا رجل بين يديه مكتوف وهو يقول :

واغوثاه ، أنا بالله ثم بالقاضي ، وإذا آثار سياط فى ظهره ، فسلم على شريك ، ثم جلس إلى جانبه .

فقال الرجل المضروب : أنا بالله ، ثم بك أصلحك الله ، أنا رجل أعمل هذا الوشى ، كراء مثلى مائة فى الشهر ، أخذنى هذا منذ أربعة أشهر ، واحتبسنى فى طراز يجرى على القوت ، ولى عيال قد ضاعوا ، فأفلت اليوم منه ، فلحقنى ، ففعل بظهرى ما ترى .

فقال : قم يانصرانى ، فاجلس مع خصمك .

فقال : أصلحك الله ، يا أبا عبد الله ، هذا من خدم السيدة ، مر به إلى الحبس

قال : قم ويلك ، فاجلس منه كما يقال لك ، فجلس .

فقال : ماهذه الآثار ، التى بظهر هذا الرجل ، من أثرها به ؟

قال : أصلح الله القاضى ، إنما ضربته أسواطاً بيدى ، وهو يستحق أكثر من هذا ، مر به إلى الحبس .

فألقى شريك كساءه ، ودخل داره ، فأخرج سوطاً ربذياً ، ثم ضرب بيده إلى مجامع ثوب النصرانى .

وقال للرجل : انطلق إلى أهلك ، ثم رفع السوط ، فجعل يضرب به النصرانى ، وهو يقول له ، ياصبحى ، قد مر ، فقا جمل ، لا يضرب والله المسلم بعدها أبداً ، فهم أعوانه أن يخلصوه من يديه .

فقال : من ها هنا من فتيان ؟ خذوا هؤلاء ، فاذهبوا بهم إلى الحبس ، فهرب القوم جميعاً ، وتركوا النصرانى ، فضربه أسواطاً ، فجعل النصرانى يعصر عينيه ، ويبكى ، ويقول له : ستعلم ، فألقى السوط فى الدهليز .

وقال : ياأبا حفص ، ماتقول (فى العبد يتزوج بغير إذن مواليه ؟) وأخذ فيما كنا فيه ، كأن لم يصنع شيئاً .

وقام النصرانى إلى البرذون ليركبه ، فاستعصى عليه ، ولم يكن له من يأخذ بركابه ، فجعل يضرب البرذون .

يقول شريك : ارفق به ويلك ، فإنه أطوع لله منك . فمضى .

قال : يقول هو : خذ بنا فيما كنا فيه .

قلت : مالنا ، ولذا ، قد والله فعلت اليوم فعلة ستكون لها عاقبة مكروهة .

قال : أعز أمر الله يعزك الله ، مر بنا فيما نحن فيه .

وذهب النصرانى إلى موسى بن عيسى فدخل عليه .

فقال : من فعل هذا بك ؟

وغضب الأعوان وصاحب الشرط .

فقال : شريك ، فعل بى كيت وكيت .

قال : لا والله ، لا أتعرض لشريك .

ومضى النصرانى إلى بغداد فما رجع[1] .

فقد عرف عن شريك أنه لايبالى فى الحق لومة لائم ، ولا يجامل أهل السلطان ، ولا من يلوذ بهم ، مادام قد تبين له أن هناك حقاً لابد أن يصل إلى أصحابه ، أو مظلوماً يرفع الظلم عنه ، فإنه لا يهدأ له بال حتى يرد الحق

---

(١) تاريخ بغداد ج ٩ ص ٢٨٨ ، ٢٨٩

إلى أصحابه ، ويدفع الظلم عن المظلومين ، ولا يبالى فى سبيل ذلك أن يضع فى الحبس من يعترض سبيل العدالة ، أو يحاول إعانة ظالم على ظلمه ؛ حتى ولو كانوا من أصدقائه ، وذوى المكانة عنده .

وفى الموقف التالى مايدل على صرامة شريك فى الحق ، وهو موقف حق غريب يثير الإعجاب والدهشة ، فهو رجل قد اعتصم بالحق ، ووقف أمام سلطان الإمارة وسطوتها حتى أرغم الحاكم على الخضوع للحق ، والنزول على رأى العدالة والوقوف موقف المساواة من خصمه ، حتى ولو كان امرأة ضعيفة ، لاحول لها ولا طول ، وحسبك أن تقرأ معى تلك الأحداث المثيرة التى سجلها الخطيب البغدادى ، وهو يترجم لشريك قال : أتت امرأة من ولد جرير بن عبد الله البجلى يوماً شريكا ، وهو فى مجلس الحكم ، فقالت : أنا بالله ثم بالقاضى ، امرأة من ولد جرير بن عبد الله ، صاحب النبى ﷺ ، ورددت الكلام .

فقال : إيها عنك الآن ، من ظلمك ؟

فقالت : الأمير موسى بن عيسى (كان والياً على الكوفة) كان لنا بستان على شاطىء الفرات ، لى فيه نخل ورثته عن آبائى ، وقاسمت إخوتى ، وبنيت بينى وبينهم حائطاً ، وجعلت فيه فارسياً فى بيت يحفظ النخل ، ويقوم ببستانى ، فاشترى الأمير موسى بن عيسى من إخوتى جميعاً ، وساومنى ، وأرغبنى ، فلم أبعه ، فلما كان فى هذه الليلة بعث بخمسمائة فاعل ، فاقتلعوا الحائط ، فأصبحت لا أعرف من نخلى شيئاً ، واختلط بنخل إخوتى .

فقال : يا غلام ، طينة ، فختم ، ثم قال لها ، امضى إلى بابه حتى يحضر معك ، فجاءت المرأة بالطينة ، فأخذها الحاجب ، ودخل على موسى .

فقال : أعدى شريك عليك .

قال : ادع لى صاحب الشرطة ، فدعا به .

فقال : امض إلى شريك ، فقل : يا سبحان الله ، ما رأيت أعجب من أمرك ، امرأة ادعت دعوى لم تصح ، أعديتها على .

قال صاحب الشرطة : إن رأى الأمير أن يعفينى فليفعل .

فقال : امض ويلك ، فخرج ، فأمر غلمانه أن يتقـــدموا إلى الحبس بفراش وغيره من آلة الحبس ، فلما جاء ، فوقف بين يدى شريك فأدى الرسالة .

قال : خذه بيده ، فضعه فى الحبس .

قال : قد والله، ياأبا عبد الله عرفت أنك تفعل بى هذا، فقدمت مايصلحنى إلى الحبس .

وبلغ الخبر موسى بن عيسى ، فوجه الحاجب إليه ، فقال : هذا من ذاك رسول ، أى شىء عليه ؟

فلما وقف بين يديه ، وأدى الرسالة ، قال : ألحقه بصاحبه فحبس .

فلما صلى الأمير العصر ، بعث إلى إسحاق بن الصباح الأشعثى ، وجماعة من وجوه الكوفة ، من أصدقاء شريك .

فقال : امضوا إليه ، وأبلغوه السلام ، وأعلموه أنه قـد استخف بى ، وأنى لست كالعامة .

فضوا ، وهو جالس فى مسجده بعد العصر ، فدخلوا ، فأبلغوه الرسالة ، فلما انقضى كلامهم ، قال لهم : مالى لا أراكم جئتم فى غيره من الناس كلمتمونى ؟

من هاهنا من فتيان الحى ؟ فيأخذ كل واحد منكم بيد رجل فيذهب به إلى الحبس ، لا ينم والله إلا فيه .

قالوا : أجاد أنت ؟

قال : حقاً ، حتى لا تعودوا برسالة ظالم . فحبسهم .

وركب موسى بن عيسى فى الليل إلى باب الحبس . ففتح الباب وأخرجهم جميعاً فلما كان من الغد ، وجلس شريك للقضاء ، جاء السجان ، فأخبره ، فدعا بالقمطر فختمها ، ووجه بها إلى منزله ، وقال لغلامه : الحقنى بثقلى إلى بغداد ، والله ماطلبنا هذا الأمر منهم ، ولكن أكرهونا عليه ، وضمنوا لنا الإعزاز فيه إذ تقلدناه لهم ، ومضى نحو قنطرة الكوفة إلى بغداد ، وبلغ موسى بن عيسى الخبر ، فركب فى موكبه ، فلحقه ، وجعل يناشده الله ، ويقول : ياأبا عبد الله ، تثبت ، انظر إخوانك تحبسهم ؟ دع أعوانى .

قال : نعم ، لأنهم مشوا لك فى أمر لم يجب عليهم المشى فيه ، ولست ببارح أو يردوا جميعاً إلى الحبس ، وإلا مضيت إلى أمير المؤمنين، فاستعفيته مما قلدنى ، فأمر بردهم جميعاً إلى الحبس ، وهو والله واقف مكانه ، حتى جاء السجان ، فقال : قد رجعوا إلى الحبس .

فقال لأعوانه : خذوا بلجامه ، قودوه بين يدى جميعاً إلى مجلس الحكم، فمروا به بين يديه حتى أدخل المسجد ، وجلس مجلس القضاء .

ثم قال : الجويرية المتظلمة من هذا ؟ فجاءت .

فقال : هذا خصمك قد حضر ، وهو جالس معها بين يديه .

فقال : أولئك يخرجون من الحبس قبل كل شيء .

قال : أما الآن ، فنعم ، أخرجوهم .

قال : ماتقول فيما تدعيه هذه ؟

قال : صدقت .

قال : فرد جميع ما أخذ منها ، وتبنى حائطاً فى وقت واحد سريعاً كما هدم .

قال : أفعل .

قال : بقى لك شىء ؟ (يسأل المرأة) .

قالت : بيت الفارسى ومتاعه .

قال موسى بن عيسى : ويرد ذلك .

سألها شريك : هل بقى لك شىء ؟

قالت : لا ، وجزاك الله خيراً .

قال : قومى ، وزبرها (زجرها) .

ثم وثب من مجلسه ، فأخذ بيد موسى بن عيسى فأجلسه فى مجلسه .

ثم قال : السلام عليك ، أيها الأمير ، تأمر بشىء ؟

قال : أى شىء آمر ؟ وضحك[1] .

فهذه والله عزة القضاء ، ونزاهة الحكم ، وشجاعة القضاة التى يجب أن تكون مثلا يحتذى فى كل عصر وجيل ، حتى تحفظ الحقوق ، وتصان الحرمات ، ويأخذ كل ذى حق حقه ، ويمرح الناس فى ظلال العدل ، وهم آمنون على دمائهم وأموالهم وأعراضهم .

---

(١) تاريخ بغداد جـ ٩ ص ٢٨٩ ، ٢٩١

الحق أن هذا موقف فذ من شريك ، ينحنى له التاريخ إجلالا وإعجاباً ، ويسجل فى سجل مفاخر القضاء فى الإسلام بمداد من ذهب .

إلا أن هذه الجرأة فى الحق من شريك كانت سبباً فى عزله عن القضاء بعد أن أوغر من حول الخليفة صدره عليه .

وكانت مؤنسة أيام المهدى صاحبة نفوذ وسلطان وكلمة مسموعة ، وكان العاملون لحسابها يتطاولون على الناس بصلتهم بها ، وأوقع سوء الحظ أحد وكلائها إلى أن تقدم مع خصم له فى قضية أمام شريك ، وجعل وكيل مؤنسة يتطاول على خصمه فى مجلس القضاء ، إدلالا عليه بموضعه ومكانه من مؤنسة .

فقال له شريك : كف لا أبالك .

فأجاب الرجل : أتقول لى هذا ، وأنا وكيل مؤنسة .

فأمر به فصفع عشر صفعات ، فانصرف ، ودخل على مؤنسة ، وشكا . فكتبت إلى المهدى تشكو شريكا [١] .

وكان ذلك سبباً مباشراً فى عزل شريك عن القضاء .

ولما قدم أمر هارون إلى الكوفة بعزل شريك ، وكان موسى بن عيسى والياً عليها ، قال لشريك : ما صنع أمير المؤمنين بأحد ماصنع بك ، عزلك عن القضاء .

قال شريك : هم أمراء المؤمنين ، يعزلون القضاة ، ويخلعون ولاة العهود ، فلا يعاب ذلك عليهم [٢] .

---

(١) و (٢) تاريخ بغداد جـ ٩ ص ٢٩٢ ، ٢٩٣

وقد أدهشت جرأته عيسى حتى علق قائلا: ماظننت أنه مجنون هكذا[١].

ومعنى قول شريك: ويخلعون ولاة العهود الإشارة إلى أن والد الأمير كان ولى العهد قبل الخليفة المعاصر له، فخلعه أبو جعفر بمال أعطاه إياه، وهذه جرأة عن شريك شهدت بها تصرفاته ومواقفه المختلفة من أصحاب السلطة الذين ساقتهم الأقدار إلى ساحة القضاء.

ما أخذ على شريك :

هذه الجرأة فى الحق التى رأيناها توجه أحكام شريك، والوقوف بجانب الضعفاء حتى يأخذ لهم حقوقهم من الأقوياء تجعل المرء يقف متحيراً إزاء مايروى عن شريك أنه كان يشرب النبيذ، وشرب النبيذ أمر ألصق بأكثر فقهاء العراق، والحق أنه أمر يثير الدهشة حقاً أن يكون رجال بلغوا من العلم والفقه والتقوى هذه المكانة، ثم يتعاطون النبيذ.

وقد كان شريك لايدارى ذلك، ولا يستره، فقد حدث الخطيب البغدادى أن شريكا كان يختلف [illegible] ب الخليفة ببغداد، فجاء يوماً، فوجدوا منه ريح نبيذ، فقال بعضهم: نشم رائحة نبيذ أبا عبد الله.

قال: منى منى! قالوا: لو كان هذا منا لأنكر علينا.

قال: لأنكما مريبان[٢].

وبلغ الأمر بشريك أنه كان يحاجج فى ذلك، ويروى فيه بعض الأحاديث، فإذا أنكر عليه أحدهم كان رده عليه قاسياً وعنيفاً وغاضباً.

---

(١) تاريخ بغداد جـ ٩ ص ٢٩٢ و ٢٩٣

(٢) « « جـ ٩ ص ٢٩٣ و ٢٩٤

فقد حدث عبدالله بن مصعب قال : حضرت شريكا فى مجلس أبى عبيدالله . وعنده الحسن بن زيد بن الحسن بن على بن أبى طالب ، والجريرى — رجل من ولد جرير — وكان خطيباً للسلطان ، فتذاكروا الحديث فى النبيذ واختلافهم فيه .

فقال شريك : حدثنا أبو إسحاق عن عمرو بن ميمون الأودى عن عمر بن الخطاب قال : إنا نأكل من لحوم هذه الإبل ، ونشرب عليها من النبيذ ليقطعها فى أجوافنا وبطوننا .

فقال الحسن بن زيد : ما سمعنا بهذا فى الملة الآخرة إن هذا إلا اختلاق .

فقال شريك : أجل ، والله ما سمعته ، شغلك عن ذلك الجلوس على الطنافس فى صدور المجالس ، ثم سكت .

فتذاكر القوم الحديث فى النبيذ ، فقال أبو عبيد الله : يا أبا عبد الله حدث القوم بما سمعت عن النبيذ .

فقال : كلا ، الحديث أعز على أهله من أن يعرض للتكذيب ، على من يرد ؟ على أبى إسحاق الهمدانى ، أم على عمرو بن ميمون الأودى ؟[١]

ومما أخذ على شريك أنه بعث إليه بمال يقسمه بالكوفة ، فأشير عليه أن يسوى بين الناس ، فأبى ، وأعطى العربى اثنى عشر وأعطى الموالى ثمانية ، وأعطى من حسن إسلامه أربعة ، فأراد الموالى أن يقوموا عليه ، فقال لهم : أنتم لا سبيل لكم على ، كان الناس فى القسمة سواء ثمانية ثمانية ، فقد أعطيتكم ثمانية ، وأخذت من حق هؤلاء فزدته العرب يتقوون به على حاجتهم ،

---

(١) تاريخ بغداد جـ ٩ ص ١٩٢ ، ٢٩٤

تدعون مع هؤلاء. فخرج أولئك الذين أعطاهم أربعة أربعة ، وركبوا إلى بغداد فما برحوا حتى عزلوه[1] .

وقدم يوماً البصرة فأبى أن يحدثهم ، فاتبعوه حين خرج ، وجعلوا يرجمونه بالحجارة فى السفينة ، ويقولون له : يا ابن قاتل الحسين ، رحم الله طلحة والزبير .

وهو يقول لهم : يا أبناء الظئورات ، ويا أبناء السنايخ لا سمعتم منى حرفاً .

فقال له ابنه : ألا تستعدى السلطان عليهم ؟

قال : أو عجزنا عنهم ؟[2] .

قدرته على الحجاج :

كانت الصلة بين شريك ، وبين الربيع صاحب المهدى صلة ود مفقود ، وتربص ومنافسة ، وكان الربيع لا يألو جهداً فى تأليب المهدى عليه ، وتقبيح أمره عنده ، ولعل السبب فى ذلك ماعرف عن شريك من الصرامة فى القضاء ، وعدم السماح لشخص ما مهما كان مركزه أن يتدخل فى شئونه .

وظلت سعاية الربيع ضد شريك عند المهدى تعمل عملها حتى رأى المهدى فى منامه شريكا ، ووجهه منصرف عنه ، فلما استيقظ من نومه دعا الربيع ، وقص عليه رؤياه ، ووجدها الربيع فرصة مواتية .

فقال : ياأمير المؤمنين ، إن شريكا مخالف لك ، وإنه فاطمى محض .

---

(١) و (٢) تاريخ بغداد جـ ٩ ص ٢٩٣

فقال المهدى : على به .

فلما دخل عليه ، قال له : ياشريك ، بلغنى أنك فاطمى .

فقال شريك : أعيذك بالله يا أمير المؤمنين أن تكون غير فاطمى إلا أن تعنى فاطمة بنت كسرى .

قال : ولكننى أعنى فاطمة بنت محمد ﷺ .

قال : أفتلعنها يا أمير المؤمنين ؟

قال : معاذ الله .

قال : فما تقول فيمن يلعنها ؟

قال : عليه لعنة الله .

قال : فالعن هذا — وأشار إلى الربيع — فإنه يلعنها فعليه لعنة الله .

قال الربيع : لا والله يا أمير المؤمنين ما ألعنها .

قال له شريك : ياماجن ، فما ذكرك لسيدة نساء العالمين ، وابنة سيدة المرسلين فى مجالس الرجال ؟

وترى من هذا الحوار أن شريكا استطاع أن يجعل الخليفة يتبنى رأيه هو ، وفى الوقت نفسه وضع من وشى به موضع الاتهام حتى أخذ يدافع عن نفسه أمام الخليفة .

قال المهدى : دعنى من هذا ، فإنى رأيتك فى منامى كأن وجهك مصروف عنى وقفاك إلى ، وما ذلك إلا بخلافك على ، ورأيت فى المنام كأنى أقتل زنديقاً .

قال شريك : إن رؤياك يا أمير المؤمنين ، ليست برؤيا يوسف الصديق صلوات الله على محمد وعليه ، وإن الدماء لا تستحل بالأحلام ، وإن علامة الزندقة بينة .

قال : وما هي ؟

قال : شرب الخمر والرشى في الحكم ومهر البغى .

قال : صدقت والله يا أبا عبد الله ، أنت والله خير من الذى حملنى عليك[1] .

ومن مظاهر الوقيعة التى حاولها الربيع عند المهدى ما حدث عندما دخل شريك على المهدى ، فابتدره الربيع قائلا : خنت مال الله ، ومال أمير المؤمنين .

فابتدره شريك قائلا : لو كان ذلك لأتاك سهمك[2] ، فأسكته .

وقد كان شريك يتردد على مجلس الخليفة على ماجرت عليه عادة رجال كبار الدولة وذوى الشأن والنباهة فيها ، وكان الخليفة يشركه فيما يدور من حديث ومناقشات .

وكان كذلك يتردد على مجلس عبيد الله وزير المهدى كما رأينا من النقاش الذى دار بينه وبين الحسن بن زيد .

وفى إحدى زيارات شريك للمهدى أدخل عليه رجل ادعى النبوة ، فقال له المهدى : أنت نبى ؟

قال : نعم

---

(١)و(٢) العقد الفريد جـ ٢ ص ٥٠ ، ٥١ تحقيق الأستاذ محمد سعيد العريان .

قال : ومتى نبشعه ؟

قال: وما تصنع بالتاريخ ؟

قال : فنى أى المواضع جاءتك النبوة ؟

قال : وقعنا والله فى شغل ، ليس هـذا من شأن الأنبياء ، إن كان رأيك أن تصدقنى فى كل ماقلت لك ، فاعمل بقولى ، وإن كنت عزمت على تكذيبى، فدعنى أذهب عنك .

فقال المهدى : هذا مالا يجوز ، إذ كان فيه فساد الدين .

قال : واعجباً لك ، تغضب لدينك لفساده ، ولا أغضب أنا لفساد نبوتى؟ أنت والله ما قويت إلا بمعن بن زائدة ، والحسن بن قحطبة ، وما أشبههما من قوادك .

وكان شريك القاضى على يمين المهدى فقال : ماتقول فى هذا النبى ياشريك؟

قال المتنبىء : شاورت هذا فى أمرى ، وتركت أن تشاورنى .

قال : هات ما عندك .

قال : أحاكمك فيما جاء به من قبلى من الرسل .

قال المهدى : رضيت .

قال : أكافر أنا عندك أم مؤمن ؟

قال : كافر .

قال : فإن الله يقول : « ولا تطع الكافرين والمنافقين ودع أذاهم » فلا تطعنى ولا تؤذنى ، ودعنى أذهب إلى الضعفاء والمساكين ، فإنهم أتباع الأنبياء ، وأدع الملوك والجبابرة فإنهم حطب جهنم .

فضحك المهدى وخلى سبيله[1] .

هذه معالم حياة ذلك القاضى الفذ الشجاع ، ثم أراد الله أن تنتهى تلك الحياة الحافلة إلى الغاية التى ينتهى إليها كل حى ، وودع شريك الحياة بعد أن ترك خلفه تلك المواقف التى انتظمته فى سلك العظماء من الرجال ، ذهب شريك وخلف من بعده هذه الأمثلة الفذة من الجرأة فى الحق ، والشجاعة فى إبداء الرأى والقدرة على الحجاج ، وامتلاك زمام الأمور فى المواقف العصيبة ، حتى ينهنه من غضب الخليفة ، ويضيق الخناق على من وشى به عنده فيضطر إلى أن يقف موقف الدفاع عن نفسه بعد أن ظن أنه قد أوقع به .

وقد اختلف المؤرخون فى العام الذى توفى فيه شريك بين عام ١٧٧ هـ أو ١٧٨ هـ .

ولما مات شريك رثاه عرز بن علقمة فقال :

لقد وارى المقابر من شريك ··· كثير تحلم وقليل عاب
صموتاً فى المجالس غير عى ··· جديراً حين ينطق بالصواب[2]

رحم الله شريكا وأكرم مثواه وتجاوز عن هفواته .

---

(١) العقد الفريد جـ ٧ ص ١٦١

(٢) البيان والتبيين جـ ١ ص ٥ تحقيق عبد السلام هارون

عافية بن يزيد الأودى القاضى

هذا رجل تملكنى الإعجاب به لما قرأت سيرته ، وتمثل لى وأنا أقرأ عنه مثل حى للورع النقى ، والعدل الذى يسمو على الرغبات والشهوات وخطرات النفس والحرص الشديد على النجاة بنفسه مما يوهم أنه قد يؤدى إلى الميل حتى فى الخطرة وحديث النفس ، وحسبك أن تقرأ معى هذه الواقعة لتدرك كيف كان عافية يراقب الله فى خطرات قلبه ونجوى ضميره وهواجس نفسه .

فقد أخطر المهدى يوماً فى وقت الظهيرة أن عافية بن يزيد القاضى يود مقابلته على عجل ، فلما أذن له إذا به يحمل أوراقه بين يديه ، ويسأل المهدى أن يعفيه من القضاء ويستأذنه فى تسليم الأوراق التى فى حوزته إلى من يأمر الخليفة بتسليمها إليه .

وظن الخليفة أن عافية قد أقدم على طلب الاستعفاء من القضاء لأن أحد رجال الحاشية وممن هم محسوبون على الخليفة قد تطاول عليه أو نال منه أو أساء معاملته أو أبدى عدم احترام له أو تدخل فى شأن من شئون قضائه فأضعف سلطانه فى تنفيذ أحكامه .

ولشد ما كانت دهشة الخليفة حينما عرف أن شيئاً من ذاك لم يقع مطلقاً .

فأحب الخليفة أن يتعرف من قاضيه السبب الحقيقى الذى دفعه إلى طلب الاستعفاء وهكذا على عجل عما جعله يقدم إليه فى ذلك الوقت الذى يلجأ الناس فيه إلى الراحة والاستجمام .

وإزاء إصرار الخليفة المهدى على معرفة السبب لم يجد عافية بداً من أن يروى له ما جرى له مما كان سبباً فى طلب الإعفاء حرصاً على دينه، وطهارة نفسه.

قال عافية: منذ شهرين وأنا أتابع البحث فى إحدى القضايا المعضلة محاولا أن أصل فيها إلى وجه الحق، فقد تقدم إلى خصمان موسران وجيهان، فى قضية معضلة مشكلة، وكل منهما يدعى بينة وشهوداً ويدلى بحجج تحتاج إلى تأمل وتثبيت، ولما لم يتبين لى وجه الحق رددت الخصوم رجاء أن يصلحوا أو يعن لى وجه فصل بينهما.

وأثناء ذلك وقف أحد الخصمين من خبرى على أنى أحب الرطب السكرى، فعمد فى وقتنا هذا وهو (أول أوقات الرطب) وجمع رطباً سكراً لايتهيأ فى هـــذا الوقت لأحد جمع مثله إلا لأمير المؤمنين وحقاً مارأيت أحسن منه، ثم عمد إلى بوابى فرشاه جملة دراهم ليدخل الطبق إلى، على أنه لايبالى بعد ذلك أن أقبل الطبق أو أرده.

فلما أدخل الطبق إلى أنكرت أمره، وطردت بوابى وأمرت برد الطبق فرد لساعته.

فلما كان اليوم تقدم إلى هذا الرجل مع خصمه، فهالنى أنهما لم يتساويا فى قلبى ولا فى عينى، وهذا يا أمير المؤمنين وأنا لم أقبل، فكيف يكون حالى لو قبلت؟ ولا آمن أن يقع على حيلة فى دينى فأهلك، وقد فسد الناس فأقلنى أقالك الله وأعفنى.

ولم يسع الخليفة وهو يستمع إلى ذلك النموذج الفذ من الحرص الخالص

على نزاهة الحكم وبعد القاضى عن المؤثرات أياً كان نوعها إلا أن يستجيب لرجاء القاضى التقى النبيل فأعفاه من القضاء[1] .

ذلك هو عافية بن يزيد الأودى قاضى الكوفة وقد ولاه المهدى القضاء فى الجانب الشرقى ببغداد ولهذا سهل عليه أن يقدم على الخليفة فى نفس الساعة التى انصرف فيها من مجلس القضاء .

وقد تتلمذ لابن أبى ليلى القاضى وحدث عنه وعن سليمان الأعمش ومحمد ابن عمرو ومجالد بن سعيد .

وكان عافية من أصحاب أبى حنيفة الذين كانوا يتمتعون بالاحترام الكامل والوقوف عند آرائهم حينما يتناولون مسألة من المسائل بالبحث والتنقيب ، ذلك أن أبا حنيفة كان يثق ثقة لا حد لها فى دينه وعلمه وفقهه وحسن تأتيه للأمور .

فقد روى الخطيب أنه كان إذا انعقد مجلس أبى حنيفة وأصحابه لبحث مسألة من المسائل فإن كان عافية حاضراً المجلس مشاركا فى المناقشة وانتهى المجلس إلى رأى فى هذه المسألة لم يكن أبوحنيفة يسمح بإثباتها إلا إذا كان عافية موافقاً على الرأى الذى يسجل ، فإذا حدث وخاضوا فى مسألة ما ولم يحضر عافية سأل أبوحنيفة أصحابه أن تظل المسألة موضع المذاكرة قيد البحث حتى يحضر عافيه ويدلى بدلوه فى الدلاء فإن ذهب إلى ما ذهبوا إليه أمر أبوحنيفة بإثباتها وإن لم يوافق على ماذهبوا إليه أمرهم بعدم إثباتها .

وهذا يعنى أن عافية كان بين أصحاب أبى حنيفة صاحب الكلمة الأخيرة وأنه كان محل الثقة الكاملة والاطمئنان التام ، ولم يكن أصحاب أبى حنيفة

---

(١) البداية والنهاية ج ١٠ ص ١٧٦ ، تاريخ بغداد ج ١٢ ص ٣٠٩

الآخرون رجالا مغمورين بل كانوا من مشاهير العلماء فى عصرهم ، والذين كانوا يشاركون فى المذاكرة هم زفر ، وأبو يوسف ، وداود الطائى ، وأسد ابن عمرو ، والقاسم بن معن ، وعلى بن مسهر ، ومندل وحيان ابنا على[١] .

ومن نافلة القول أن نشير إلى أن عافية كان من أهل الرأى ومن أصحاب أبى حنيفة .

وقد ولى القضاء بالاشتراك مع أبى علاثة سنة ٦١ هـ وكانا يأخذان مجلسهما فى مسجد الرصافة أحدهما فى أقصى المسجد والآخر فى أدناه .

وكان عافية أكثرهما دخولا على المهدى على الرغم من أن ابن علاثة كان السبب فى توليه القضاء ، فقد كانا متصاحبين ، فأدخله ابن علاثة على المهدى فاستقضاه معه ، حتى غلب عافية على المهدى صاحبه ابن علاثة ، كما كان الأمر لأبى عبيد الله ، ويعقوب بن داود ، وقد لفت توافق الأمرين نظر شاعر مثل على بن الخليل فقال :

عجباً لتصريف الأمور مسرة وكراهية
دبت ليعقوب بن داود حبال معاوية
وعدت على ابن علاثة القاضى بوائق عافية
أدخلته فعلا عليك كذاك شؤم الناصية
وأخذت ضيفك حاضراً بيمينك المتراخية
يعقوب ينظر فى الأمور وأنت تنظر ناحية[٢]

وكان عافية رجلا لايداهن ولا يتوقف عن الجهر برأيه فيما يعتقد أنه حق ، ولا يرى أنه يليق به أن يجامل إنساناً على حساب الحق والشرع

(١) تاريخ بغداد جـ ١٢ ص ٣٠٨ .
(٢) الأغانى جـ ١٣ ص ١٤ ، ١٥ .

مهما علت مكانة ذلك الشخص وارتفعت منزلته حتى ولو كان الخليفة نفسه .

وعلى الرغم من أنه استعفى من القضاء إلا أن الرشيد أسند إليه القضاء أثناء خلافته ، والحادثة الثالثة تؤكد هذا وتشير إلى ما اتصف به عافية من صرامة فى الحق وعدم استعداده للتسامح فى أى أمر مهما صغر ما دام يتعلق بالسنة وصاحب الشرع ، فقد أسند الخطيب إلى الأصمعى أنه قال : كنت عند الرشيد يوماً ، فرفع إليه فى قاض كان قد استقضاه يقال له عافية ، فكبر عليه ، فأمر بإحضاره ، فأحضر ، وكان فى المجلس جمع كثير ، فجعل أمير المؤمنين يخاطبه ، ويوقفه على ما وقع إليه ، وطال المجلس ثم إن أمير المؤمنين عطس فشمته من كان بالحضرة ممن قرب منه إلا عافية فإنه لم يشمته .

فقال له الرشيد : مابالك لم تشمتنى كما فعل القوم ؟

فأجاب عافية : لأنك ياأمير المؤمنين لم تحمد الله ، فلذلك لم أشمتك .

هذا النبي صلى الله عليه وسلم عطس عنده رجلان فشمت أحدهما ولم يشمت الآخر .

فقال : يارسول الله ، مالك شمت ذاك ولم تشمتنى ؟

قال : لأن هذا حمد الله فشمتناه ، وأنت لم تحمده فلم أشمتك .

فقال الرشيد عند ذلك : ارجع إلى عملك ، أنت لم تسامح فى عطسة ، تسامح فى غيرها ؟

وصرفه منصرفاً جميـــلا ، ونهر القوم الذين جاءوا يشتكونه إلى الخليفة(١) .

وعافية بمسلكه الذى رأيناه مع المهدى والرشيد يضرب المثل العملى لحرص القاضى الشديد على أن يكون بمنأى عن كل المؤثرات النفسية والمادية مما يتعلق بالقضايا التى يحكم فيها .

فرحم الله هؤلاء الأسـلاف العظماء الذين كانت تحجزهم أخلاقهم ويمنعهم دينهم أن يعلق بهم شبهة أو يؤثر عن أحدهم ميل أو جور .

وعلى الرغم مما رأيناه من هذه الأخلاق الفذة فإن هذه النماذج العالية فى تاريخ القضاء فى الإسلام لم تسلم من غمز المنحرفين والتعرض للتشهير بهم ممن لا يراعون مروءة ولا يحجزهم وازع من دين .

وقد ابتلى عافيه فى زمانه بأبى دلامة الشاعر الماجن البذىء اللسان ، فقد تقدم أمام عافية فى خصومة مع رجل ثم جعل الأبيات التالية تسبقه تهديداً لعافية وتحذيراً له من لسانه :

لقـــد خاصمتنى غواة الرجال وخاصمتهم سنة وافية
فما أدحض الله لى حجة وما خيب الله لى قافية
فمن كنت من جوره خائفاً فلست أخافك يا عافيـة

والشعر كما ترى قد يحمل على محمل المدح أو الذم .

---

(١) تهذيب التهذيب جـ ٥ ص ٦٠ ، تاريخ بغداد جـ ١٢ ص ٣٠٩ ، البداية والنهاية جـ ١٠ ص ١٥٦

فقال له عافية : لأشكونك لأمير المؤمنين .

فقال : لم تشكونى ؟

قال : لأنك هجوتنى ؟

قال : والله لئن شكوتنى إليه ليعزلنك .

قال : ولم ؟

قال : لأنك لا تعرف الهجاء من المديح[1] .

لله ما أجمل التقى يزينها العفاف .

والفقه يصونه الدين .

والمروءة يجملها الورع .

---

(١) الأغانى جـ ٩ ص ١٢٦ ، تاريخ بغداد جـ ١٢ ص ٣١٠

حفص بن غياث أبو عمر النخعي الكوفي القاضي

١١٧ – ١٩٤ هجرية

ولد حفص بالكوفة سنة ١١٧ هـ ونشأ وتربى بها وتعلم أولا بها وتلقى عن رجالها ثم أخذ العلم عن شيوخ عصره وأعلامه الثقات من أمثال هشام ابن عروة واسماعيل بن أبي خالد وسليمان الأعمش وأبي إسحاق الشيباني وجعفر بن محمد بن علي وسفيان الثوري ومن في طبقتهم .

وتلقى عنه أعلام مشهود لهم بالورع والتقى والصلاح والاستقامة ، من أمثال أحمد بن حنبل ويحيى بن معين وعلي بن المديني وإسحاق بن راهوية وعامة الكوفيين .

وكان حفص كثير الحديث حافظاً له ، ثبتا فيه ، وكان مقدماً عند المشايخ الذين سمع منهم الحديث . وكان يحدث بالكوفة وبغداد من حفظه لم يخرج كتاباً وكتبوا عنه أربعة آلاف حديث من حفظه .

وكانت تربطه صداقة ومودة وزمالة علمية بكل من عبد الله بن إدريس ووكيع بن الجراح وقد بلغ ثلاثتهم في العلم والعمل شأواً بعيداً حتى أصبحوا ممن يشار إليهم بالبنان ، وكان ثلاثتهم ممن وقع عليهم اختيار الرشيد من رجال دولته ليسند إليهم القضاء ، أما صاحباه فاحتال كل منهما التخلص من مسئولية القضاء وأما غياث فأسند إليه القضاء أما قصة عرض القضاء عليهم فيوردها ابن الجوزي في صفوة الصفوة عن بعض المحدثين قال : سألت وكيعاً عن مقدمه هو وابن إدريس وحفص على هارون الرشيد فقال : كان أول من دعى

به أنا ، فقال لى هارون : ياوكيع : إن أهل بلدك طلبوا منى قاضياً ،وسموك لى فيمن سموا ، وقد رأيت أن أشركك فى أمانتى .

فقلت : يا أمير المؤمنين أنا شيخ كبير وإحدى عينى ذاهبة والأخرى ضعيفة .

فقال هارون : اللهم غفراً ، خذ عهدك أيها الرجل وامض .

فقلت : ياأمير المؤمنين ، والله لئن كنت صادقاً إنه لينبغى أن يقبل منى ، ولئن كنت كاذباً فما ينبغى أن تولى القضاء كذاباً .

فقال : اخرج . فخرجت .

ودخل ابن إدريس ، فسمعنا وقع ركبتيه على الأرض حين برك ، وما سمعناه يسلم إلا سلاماً خفياً .

فقال له هارون : أتدرى لم دعوتك ؟

قال : لا .

قال : إن أهل بلدك طلبوا منى قاضياً وأنهم سموك فيمن سموا ، وقد رأيت أن أشركك فى أمانتى وأدخلك فى صالح ما أدخل فيه من أمر هذه الأمة فخذ عهدك وامض .

فقال له ابن إدريس : لست أصلح للقضاء .

فنكث هارون بأصبعه وقال : وددت لم أكن رأيتك .

فقال له ابن إدريس : وأنا وددت أنى لم أكن رأيتك . فخرج .

ثم دخل حفص فقبل عهده . وكان ذلك عام ١٧٧ وكان سنه ستين سنة .

فأتى خادم معه ثلاثة أكياس فى كل كيس خمسة آلاف .

فقال لى : إن أمير المؤمنين يقرئك السلام ، ويقول لكم ، قد لزمتكم فى شخوصكم مئونة ، فاستعينوا بهذه فى سفركم .

قال وكيع : فقلت له : اقرىء أمير المؤمنين السلام ، وقل له : قد وقعت منى بحيث يحب أمير المؤمنين ، وأنا مستغن عنها .

وأما ابن إدريس فصاح به : مر من ها هنا ، وقبلها حفص .

وخرجت الرقعة إلى ابن إدريس من بيننا : عافانا الله وإياك ، سألناك أن تدخل فى أعمالنا فلم تفعل ، ووصلناك من أموالنا فلم تقبل ، فإذا جاءك ابنى المأمون فحدثه إن شاء الله .

فقال للرسول : إذا جاءنا مع الجماعة حدثناه إن شاء الله ، ثم مضينا فلما صرنا إلى الياسرية التفت ابن إدريس إلى حفص فقال : قد علمت أنك ستبلى ، والله لا أكلمك حتى تموت فما كلمه حتى مات[1] .

وكان ابن إدريس قد لاحظ وهم فى طريقهم إلى بغداد لملاقاة الخليفة أن حفصاً قد طرى خضابه حين قرب من بغداد ، فالتفت إلى وكيع وقال : أما هذا فقد قبل[2] وقد كان من دأب الصالحين أن يتحرزوا عن قبول القضاء ما كانت لهم مندوحة ويبدو أن حفصاً لم يقبل القضاء راغباً فيه ولا متطلعاً إلى مكانة أو رياسة أو جاه ، وإنما ألجأه إلى ذلك قسوة الحياة وثقل تبعاتها وحاجة أهله وولده ، ولذلك يروى عنه أنه قال : ما قبلت القضاء حتى حلت لى الميتة . . يعنى أنه كان مضطراً إلى ذلك ، وقال :

---

(١) صفوة الصفوة جـ ٣ ص ١٠٠

(٢) تاريخ بغداد جـ ٨ ص ٨٩

لولا غلبة الدين والعيال ما وليت[١] وكان يقول : لو رأيت أنى أسر بما أنا فيه لهلكت . وجاء رجل يسأله عن مسائل القضاء ، فقال له : لعلك تريد أن تكون قاضياً ؟ لأن يدخل الرجل إصبعه فى عينه فيقتلعها فيرى بها خير له من أن يكون قاضياً[٢] .

ولا تصدر هذه الكلمات إلا من رجل يستشعر مسئوليته أمام ربه ويدرك عظم الخطر الذى أقدم عليه من توليه مثل هذا المنصب الخطير ، ولذلك كان إدراكه هذا حاجزاً له أن ينغمس فيما ينغمس فيه طلاب المجد والشهرة والجاه أو أن يبالى على من يحكم مادام قد وضح الحق أمامه .

ولعلنا ندرك مدى ما امتاز به حفص طوال مدة قضائه من النزاهة وتحرى الحق والقيام بالعدل حينما نستحضر ما روى منسوباً إلى أبى يوسف من أنه قال لأصحابه حين ولى حفص : تعالوا نكتب نوادر حفص ، فلما وردت أحكامه وقضاياه على أبى يوسف ، قال له أصحابه : أين النوادر التى زعمت تكتبها ؟

قال : ويحكم ، إن حفصاً أراد الله فوفقه ، وفى رواية أخرى ما أصنع بقيام الليل ، يريد أن الله وفقه ببركة قيام الليل فى الحكم .

ويبدو أن حفصاً كان شديد المراقبة لنفسه مستشعراً لخطر ما هو فيه ، ولذلك كان واثقاً من إكرام الله له ، وكان لا يبالى على من يقع حكمه ، فيروى ابنه وكان صالحاً عالماً فيقول : لما حضرت أبى الوفاة أغمى عليه ، فبكيت عند رأسه ، فأفاق ، فقال : ما يبكيك ؟

قلت أبكى لفراقك ، ولما دخلت فيه من هذا الأمر — يعنى القضاء —

---

(١) و (٢) تاريخ بغداد جـ ٨ ص ٨٩

فقال : لا تبك ، فإنى ماحللت سراويلى على حرام قط ، ولا جلس بين يدى خصمان فباليت على من توجه الحكم منهما(١) .

وولى حفص قضاء بغداد عامين ثم ولى قضاء الكوفة للاثة عشر عاماً كان فيها مثال النزاهة والاستقامة والحرص على إقامة العدل وحفظ كرامة القاضى ونزاهة القضاء ، وقد روى أنه كان جالساً فى الشرقية (شرق بغداد) للقضاء ، فجاء إليه رسول الخليفة يدعوه ، فقال له : حتى أفرغ من أمر الخصوم إذ كنت أجيراً لهم ، وأجيء إلى أمير المؤمنين ، ولم يقم حتى تفرق الخصوم(٢) وكان يرى أنه لا يستحق مرتبه إذا لم يجلس للقضاء حتى ولو كان امتناعه عن الجلوس للقضاء بسبب المرض ، فقد حدث غنام بن حفص قال : مرض حفص بن غياث خمسة عشر يوماً ، فدفع إلى مائة درهم ، فقال : امض بها إلى العامل وقل له : هذه رزق خمسة عشر يوماً لم أحكم فيها بين المسلمين لاحظ لى فيها(٣) .

ووقف حفص منتصراً لرجل من خراسان ضد وكيل أم جعفر زوج هارون الرشيد وألقى به فى الحبس حتى يعطى للرجل حقه ولم يبال إذا كان حكمه هكذا سيجر عليه غضب الخليفة أولا بل أنه تعمد أن ينتهى من إنفاذ الحكم قبل أن يتخذ الخليفة أمراً بعزله أو نقله إلى مكان آخر ، وقصة هذا الحكم الذى وقف فيه حفص وجهاً لوجه يتحدى مكانة زوج الرشيد بحبس وكيلها تتلخص فى أن رجلا من خراسان باع جمالا بثلاثين ألف درهم من مرزبان المجوسى وكيل أم جعفر ، فمطله بثمنها وحبسه فطال ذلك على الخراسانى ، فأتى ببعض أصحاب حفص بن غياث فشاوره . فقال : اذهب إليه ، فقل له أعطنى ألف درهم وأحيل عليك بالمال الباقى وأخرج

(١) و (٢) و (٣) تاريخ بغداد جـ ٨ ص ١٩٠

إلى خراسان ، فإن فعل هكذا فالقنى حتى أشير عليك ، ففعل الرجل ، وأتى مرزبان ، فأعطاه ألف درهم ، فرجع إلى الرجل فأخبره ، فقال : عد إليه، فقل له : إذا ركبت غداً فطريقك على القاضى تحضر وأوكل رجلا يقبض المال وأخرج .

فإذا جلس القاضى ، فادع عليه ما بقى لك من المال .

فإذا أقر ، حبسه حفص وأخذت مالك .

فرجع إلى مرزبان فسأله ، فقال : انتظرنى بباب القاضى ، فلما ركب من الغد وثب إليه الرجل ، فقال : إن رأيت أن تنزل إلى القاضى حتى أوكل بقبض المال وأخرج .

فنزل مرزبان ، فتقدما إلى حفص ابن غياث ، فقال الرجل :

أصلح الله القاضى لى على هذا الرجل تسعة وعشرون ألف درهم .

فقال حفص : ماتقول يا مجوسى ؟

قال : صدق ، أصلح الله القاضى .

قال : ماتقول يارجل ، فقد أقر لك ؟

قال : يعطينى مالى ، أصلح الله القاضى .

فأقبل حفص على المجوسى فقال : ما تقول ؟

قال : هذا المال على السيدة .

قال : أنت أحمق ، تقر ثم تقول على السيدة .

ماتقول يارجل ؟

قال: أصلح الله القاضى ، إن أعطانى مالى وإلا حبسته .

قال حفص : ماتقول ، يا مجوسى ؟

قال : المال على السيدة .

قال حفص : خذوا بيده إلى الحبس .

فلما حبس بلغ الخبر أم جعفر فغضبت ، وبعثت إلى السندى وجه إلى مرزبان ، وكانت القضاة تحبس الغرماء فى الحبس ، فعجل السندى بإخراجه ، وبلغ حفصاً الخبر .

فقال : أحبس أنا ، ويخرج السندى ؟ لاجلست مجلسى هذا أو يرد مرزبان إلى الحبس .

فجاء السندى إلى أم جعفر فقال : الله الله فى ! إنه حفص بن غياث ، وأخاف من أمير المؤمنين أن يقول لى بأمر من أخرجته ؟ رديه إلى الحبس ، وأنا أكلم حفصاً فى أمره .

فأجابته فرجع مرزبان إلى الحبس .

فقالت أم جعفر : ياهارون ، قاضيك هذا أحمق ، حبس وكيلى ، واستخف به ، فره لا ينظر فى الحكم ، وتولى أمره إلى أبى يوسف .

فأمر لها بالكتاب .

وبلغ حفصاً الخبر ، فقال للرجل ، أحضر لى شهوداً ، حتى أسجل لك على المجوسى بالمال ، فجلس حفص فسجل على المجوسى .

وورد كتاب هارون مع خادم له .

فقال : هذا كتاب أمير المؤمنين .

قال : مكانك ، نحن فى شىء حتى نفرغ منه .

فقال : كتاب أمير المؤمنين .

قال : انظر ما يقال لك .

فلما فرغ حفص من السجل أخذ الكتاب من الخادم فقرأه .

فقال اقرأ على أمير المؤمنين السلام ، واخبره أن كتابه ورد وقد نفذت الحكم فقال الخادم : قد والله عرفت ماصنعت ، أبيت أن تأخذ كتاب أمير المؤمنين حتى تفرغ مما تريد ، والله لأخبرن أمير المؤمنين بما فعلت .

فقال حفص : قل له ما أحببت .

فجاء الخادم ، فأخبر هارون فضحك ، وقال للحاجب : مر لحفص ابن غياث بثلاثين ألف درهم .

فركب يحيى بن خالد ، فاستقبل حفصاً منصرفاً من مجلس القضاء فقال : أيها القاضى ، لقد سررت أمير المؤمنين اليوم ، وأمر لك بثلاثين ألف درهم، فما كان السبب فى هذا ؟

قال : تمم الله سرور أمير المؤمنين ، وأحسن حفظه وكلاءته ، ما زدت على ما أفعل كل يوم ، ثم قال : على ذاك ما أعلم إلا أن يكون سجلت على مرزبان المجوسى بما وجب عليه .

فقال يحيى بن خالد : فمن هذا سر أمير المؤمنين .

فقال حفص : الحمد لله كثيراً[1] .

---

(١) تاريخ بغداد جـ ٨ ص ١٩١ ، ١٩٢ .

وهذا موقف محمود من حرصه على إقامة العدل ورد الحقوق إلى أصحابها مهما كان الغريم صاحب سلطان وجاه ، والموقف الأكثر نبلا هو موقف هارون الذى أعجبه تمسك قاضيه بالعدل وحرصه على نزاهة الحكم واستقلاله فلم تأخذه العزة بالإثم ولم تغلبه نشوة السلطان حين تجرأ قاض فأخر استلام كتابه حتى ينفذ حكمه وهو يعلم أن كتابه هذا يتعلق بالحكم الذى قام القاضى بتسجيله متحدياً بذلك رغبة الخليفة غير مبال بسلطان أم جعفر ، أعجب هذا الموقف الشجاع هارون وسره أن يكون فى دولة الخلافة من يصرح بكلمة الحق حتى ولو كانت ضد بيت الخليفة نفسه ، وعبر عن سروره هذا بالمكافأة السخية التى صرفها إلى القاضى المعتز برأيه المتمسك بحقه فى الاستقلال وإصدار الرأى وجن جنون أم جعفر ، وزاد حنقها على حفص والحت على هارون فى عزله ، وهددته بفساد العلاقة بينهما إن لم يعزله قائلة : لا أنا ولا أنت إلا أن تعزل حفصاً ، وهو يأبى عليها وهى تلحف عليه .

ولكن جعفراً لا يريد أن يحرم دولته من رجل له كفاءة حفص وشجاعته وقدرته على الجهر بالحق ، فأسند إليه قضاء الكوفة حيث بقى قاضياً بها ثلاثة عشر عاماً حتى لقى ربه راضياً مرضياً .

وقد استحوز حفص على إعجاب رجال الدولة بما طبع عليه من أدب راق وتعبير نقى وحسن بصر بالأمور ، فهذا معاذ بن معاذ يقول مثنياً عليه : ما كان أحد من القضاة يأتينى كتابه أحب إلى من كتاب حفص بن غياث ، كان إذا كتب إلى كتاباً كان فى كتابه :

أما بعد : أصلحنا الله وإياك بما أصلح به عباده الصالحين ، فإنه هو الذى أصلحهم ، وكان ذلك يعجبنى منه .

ومات يوم مات ولم يخلف درهماً ، وخلف عليه تسعمائة درهم ديناً ، وكان يقال ختم القضاء بحفص بن غياث .

ولما مات زميله بن إدريس أصيب بالفالج ثم لم يلبث أن توفى فى عشر ذى الحجة سنة ١٩٤ هـ .

فرحمه الله رحمة واسعة .

بشر بن الوليد الكندى

٢٣٨ هـ

اسمه بشر بن الوليد بن خالد أبو الوليد الكندى أحد الذين ولوا القضاء ببغداد فى عهد الخليفة المأمون .

كان من أصحاب أبى يوسف ، وممن أخذ عنه الفقه وكان جميل المذهب حسن الطريقة .

ولى قضاء عسكر المهدى بالجانب الشرقى من بغداد سنة ٢٠٨ هـ ، بعد محمد ابن عبد الرحمن المخزومى ، واستمر قضاؤه عليها مدة عامين ، ثم ولى قضاء مدينة المنصور سنة ٢١٠ هـ ، بعد أن عزل المأمون عنه اسماعيل بن حماد ابن أبى حنيفة وظل قاضياً بمدينة المنصور حتى عزل سنة ٢١٣ هـ .

كان بشر علماً من أعلام المسلمين ، وكان عالماً متديناً خشناً فى الحكم يمتاز بسعة الفقه والورع ، وكان من أصحاب أبى يوسف المقدمين عنده .

وقد حمل الناس عنه من الفقه والمسائل الكثير الذى لا يمكن جمعه .

وقد بلغ من الثقة بفقهه أن ابن عيينة كان يحيل إليه ما يرد عليه من مسائل مشكلات ، فقد روى عن بشر نفسه أنه قال : كنا نكون عند ابن عيينة فكان إذا وردت عليه مسألة مشكلة يقول : ها هنا أحد من أصحاب أبى حنيفة ؟

فيقال : بشر .

فيقول : أجب ، فأجيب .

وكان ابن عيينة يقول تعقيباً على ذلك : التسليم للفقهاء سلامة فى الدين .

وقد عاش بشر عمراً طويلا حتى أصيب بالفالج فى أواخر حياته ، وكان كثير الصلاة والعبادة ، فقد روى أنه كان يصلى كل يوم مئتى ركعة حافظ على المداومة عليها حتى بعد إصابته بالفالج .

وكان بشر على ما يبدو رجلا كريماً سخياً بماله فبسط اليد سريعاً إلى مواساة المحتاجين والمعسرين ، وكان سمحاً يعفو عن زلات المسيء .

وكان قاضياً يقظاً واعياً يتحرى العدل ويحرص عليه قدر طاقته ، ولا يبالى — فى سبيل ما يعتقد أنه الحق — ما يلاقى من العنت وإسخاط ذوى الجاه والسلطان والتعرض لأذاهم وكيدهم الواضح والخفى .

وكان يحلى كل ذلك علم واسع ،وفقه متبصر ، وقدرة على الإبانة والتعبير ، وخلق عال ومروءة شهدت بها أفعاله ، وقد أغرت تلك الخصال شاعراً مثل ربيعة بن ثابت الرقى أن يثنى عليه بهذه القصيدة الصادقة التعبير ، الرقيقة الحاشية ، الناصعة البيان :

بشر يجود بماله ... جود السحابة بالديم

وأبو الوليد هوى الندى ... لما ترعرع واحتلم

وأعز بيت بيته ... بيت بلتة له إرم

عمرته كندة دهرها ... وبنى فأتقن ما انهدم

بشر يجود برفده ... عفواً ويكشف كل غم

بشر يقول إذا قصد ... ت تريد جدواه هلم

ما قال : لا فى حاجة ... لا ، بل يقول : نعم ، نعم

وهو العفو عن المسيء ... وعن قبائح ما اجترم

نام القضاة عن الأنام　　وعين بشر لم تنم
وحكيم أهل زمانه　　فيما يدبر وما حكم
وكأنه القمر المنير　　إذا بدا جلى الظلم
وكأنه البحر الخضم　　إذا تقاذف والتطم
وكأنه زهر الربيع　　إذا تفتح أو نجم
ختم الإله لبشرنا　　بالخير منه إذا ختم

وكان اعتزازه بنزاهة القضاء واستقلال القاضى مثلا يحتذى ويضرب الناس فلم يبال بسلطان الخلافة ولا بمنزلة يحي بن أكثم عند الخليفة المأمون ولم يوار فى الإعلان عن رأيه بصراحة فى يحي بن أكثم حينما اشتكى منه للمأمون ، وهذه أحداث تلك القصة المثيرة كما رواها صاحب تاريخ بغداد تشير إلى ما كان يتحلى به بشر من الشجاعة ، والنزاهة ، والقدرة على مخالفة رأى الخلافة والإعلان عن هذه المخالفة فى صراحة ووضوح غير ملق بالا لما يناله من أذى ، أو يحل به من سوء ، فقد شكاه يوماً يحي بن أكثم إلى المأمون قائلا : إنه لا ينفذ قضائى وكان يحي رجل الخلافة الذى لا ينازع وكان ذا دالة على المأمون مقدماً عنده حتى على ولده ، فأجلسه المأمون على سريره وبعث يستحضر بشر بن الوليد فى هذا المجلس الذى يرى فيه من تكريم الخلافة ليحي ما لم تكرم به شخصاً آخر ، وحضر بشر فى هذا المجلس وسأله الخليفة المأمون قائلا : ما ليحي يشكوك ، ويقول : إنك لا تنفذ أحكامه ؟

قال بشر : يا أمير المؤمنين ، سألت عنه بخراسان فلم يحمد فى بلده ولا فى جواره .

وما كاد المأمون يسمع إجابته حتى صاح به غاضباً : أخرج ولما خرج بشر ، انتهز يحيي الفرصة ليكيد له عند الخليفة فقال : يا أمير المؤمنين : قد سمعت فاصرفه .

فأجاب المأمون إجابة تدل على بعد نظر وتقدير لقيم الرجال واعتزاز بما فيهم من أصالة وشجاعة فى الحق : ويحك هذا لم يراقبنى فيك ، كيف أصرفه ؟ وأبى أن يفعل .

وهذا الحادث يدل على مدى تمسك بشر باستقلال القضاء وعدم خضوعه لرغبات ذوى الجاه والسلطان ولو كانوا فى منزل ليس بينهم وبين الخليفة حجاب ، حتى ولو جاءوا بالخليفة شفيعاً .

ومع أن يحيي بن أكثم كان رجل الدولة المدلل فإن ذلك لم يمنع بشراً أن يرد حكمه ، لأنه لم يثبت عنده أنه أهل للأخذ برأيه وإمضاء قضائه .

وقد كان لهذه الشخصية القوية أثر فى موقف بشر من آراء الدولة وعدم انسياقه فى تيارها ، فهذا أبو قدامة يقول : لا أعلم ببغداد رجلا من أهل الأهواء من أهل الرأى الرافضة إلا كانوا معينين على أحمد بن حنبل (يقصد فى فتنة خلق القرآن) ماخلا بشر بن الوليد الكندى ، ولذلك لم ينج بشر من الاتهام بعدم اعتناق رأى الدولة فى خلق القرآن ، تلك الفتنة التى اشتعلت أيام المأمون والمعتصم ، ومن أجل ذلك حبس ومنع من الفتوى ، وأوقف الشرط على بابه .

وقد روى محمد بن سعد أن بشر بن الوليد الكندى روى عن أبى يوسف القاضى كتبه وإملاءه ، وولى القضاء ببغداد فى الجانبين جميعاً ، فسعى به رجل ، وقال : إنه لا يقول القرآن مخلوق ، وكان ذلك فى عهد المعتصم

فأمر به أن يحبس فى منزله فحبس ، ووكل ببابه الشرط ، ونهى أن يفتى أحداً بشىء ، وظل على هذه الحال حتى ولى جعفر بن أبى إسحاق الخلافة بعد أبيه المعتصم فأمر بإطلاقه ، وسمح له أن يفتى الناس ويحدثهم .

وقد عاش بشر حتى كبرت سنه ، ولهـذا أمسك أصحاب الحديث عن الرواية عنه لأنه كان قد اختلط فى آخر عمره .

وفى شهر ذى القعدة سنة ٢٣٨ هـ توفى بشر بن الوليد الـكندى القاضى ببغداد ، ودفن فى مقابر باب الشام ، وترك للناس مثـلا طيبة فى الشجاعة والتمسك بالحق والجهر بما يعتقد ورفض الاستجابة للضغوط مهما كان مركز أصحابها ، فرحم الله بشراً وجزاه خير الجزاء .

سوار بن عبد الله القاضى

١٨٢ — ٢٤٥ هـ

سوار بن عبد الله بن سوار التميمى العنبرى البصرى القاضى ، ولد سنة ١٨٢ هـ ، وتولى قضاء الرصافة ببغداد ، وهو الجانب الشرقى من مدينة السلام عام ٢٣٧ هـ ، وظل على قضائها حتى توفى فى شوال سنة ٢٤٥ هـ[1] .

وكان سوار فقيهاً فصيحاً ، أديباً شاعراً عظيم اللحية ، وكان قد فقد بصره قبل وفاته بأيام .

وكان قد اشتغل بالحديث ورواه ومن شيوخه أبوه عبد الله بن سوار وعبد الوارث بن سعيد ، ومعتمر بن سليمان ، وعبد الرحمن بن مهدى ، ويحيى بن سعيد القطان ، ويزيد بن زريع ، وبشر بن المفضل، ومعاذ بن معاذ، وعبد الوهاب الثقفى .

وكانت له حلقة يحدث بها فى بغداد ، فقد روى الخطيب فى تاريخه أن ابن صاعد يحيى بن يحيى قال إنه حدثهم ببغداد سنة ٢٤٢ هـ ، ومن تلاميذه الذين رووا الحديث عنه عبد الله بن أحمد بن حنبل ، وعلى بن سهل البزار ، والعباس بن أحمد البرتى ، وأبو داود الطيالسى[2] وأبو داود الترمذى ، وأبو زرعة الدمشقى ، وأبو بكر المروزى القاضى والنسائى وقال عنه أحمد

---

(١) تاريخ بغداد جـ ٩ ص ٢١٠

(٢) راجع تاريخ بغداد جـ ٩ ص ٢١٠ ، وتهذيب التهذيب جـ ٤ ص ٢٦٨

ابن حنبل : ما بلغنى عنه إلا خيراً ، وقال عنه النسائى : ثقة ، وذكره فى أسماء شيوخه وعده ابن حبان فى الثقات .

وهو من أسرة عريقة فى القضاء ، إذ تولى جده وسميه سوار بن عبد الله ابن قدامة قضاء البصرة لأبى جعفر المنصور سنة ١٣٨ هـ ، وبقى حتى توفى سنة ٢٥٦ هـ ، وهو أمير البصرة وقاضيها وله أخبار مشهورة فى العدل والورع، وهو وابن أبى ليلى أول من سأل بينة على كتاب القاضى[1] وسنورده أخباره بعدما نأتى على أخبار حفيده .

وكان جانب الأدب والشعر يغلب على سوار ويكون صلاته بالناس ومخالطته لهم ولذلك تجد فى أخباره روح الأديب الشاعر يغطى على جانب القضاء ومجالسه وأحكامه .

وكان له مقام عند الولاة والحكام وذوى الجاه والسلطان وكانت قدرته على التعبير الجميل والقول الحسن تفتح له أبوابهم وتدعوهم إلى الاستماع إليه والاستجابة لما يقصدهم من أجله — فقد روى صاحب تاريخ بغداد قال : دخل سوار بن عبد الله القاضى على محمد بن عبدالله بن طاهر فقال: أيها الأمير، إنى جئتك فى حاجة رفعتها إلى الله قبل رفعها إليك ، فإن قضيتها حمدنا الله وشكرناك ، وإن لم تقضها حمدنا الله وعذرناك . فقضى جميع حوائجه[2].

وقد أورد صاحب العقد هذا الخبر بصورة أخرى يتجلى فيها ولع سوار بالأدب والشعر أكثر منه هنا ، ولا بأس من إيراد الخبر كما جاء به صاحب العقد ففيه متعة قد يرضاها القارىء إلى جانب ما تصوره من بعض جوانب الحياة الاجتماعية فى ذلك العصر وصلاة الناس بعضهم ببعض .

---

(١) تهذيب جـ ٤ ص ٢٦٩

(٢) تاريخ بغداد جـ ٩ ص ٢١٠

يقول صاحب العقد : دخل سوار القاضى على عبد الله بن طاهر ، صاحب خراسان ، فقال : أصلح الله الأمير :

لنا حاجة والعذر فيها مقدم حقق بمعناها مضعفة الأجر
فإن نقضها فالحمد لله وحده وإن عاق مقدور ففى أوسع العذر

قال له : ما حاجتك أبا عبد الله ؟

قال : كتاب لى ، إن رأى الأمير أكرمه الله أن يتخذه فى خاصته كتب إلى موسى بن عبد الملك فى تعجيل أرزاقى .

قال : أو غير ذلك أبا عبد الله ، نعجلها لك من أرزاقنا إذا وددت مخيراً بين أن تأخذ أو ترد ؟

فأنشد سوار يقول :

فبابك أيمن أبوابهم ودارك مأهولة عامرة
وكفك حين ترى المجتد ين أندى من الليلة الماطرة
وكلبك آنس بالمعتفيش من الأم بابنتها الزائرة[1]

وروى الزبير بن بكار أن سواراً كان قد خامر قلبه شىء من الوجد فقال أبياتاً مطلعها :

سلبت عظامى لحمها فتركتها ...

ولهذه الأبيات قصة طريفة أوردها صاحب تاريخ بغداد عن الجرحى قال : دخلت حماماً فى درب الثلج ، فإذا فيه سوار بن عبد الله القاضى ،

(١) العقد الفريد جـ ١ ص ١٨٦ تحقيق الأستاذ سعيد العريان .

فى البيت الداخل ، قد استلق وعليه المئزر ، فجلست بقربه ، فساكتنى ساعة ثم قال : قد أحشمتنى يارجل ، فإما أن تخرج أو أخرج .

فقلت : جئت أسألك عن مسألة .

قال : ليس هذا موضع المسائل

فقلت : إنها من مسائل الحمام .

فضحك وقال : هاتها .

فقلت : من الذى يقول :

سلبت عظامى لحمها فتركتها عوارى مما نالها تتكسر
وأخليت منها مخها فتركتها قوارير فى أجوافها الريح تصفر
إذا سمعت ذكر الفراق تراعدت مفاصلها خوفاً لما تتنظر
خذى بيدى ثم ارفعى الثوب تنظرى بلى جسدى لكننى أتستر

فقال سوار : أنا والله قلتها .

قلت فإنه يغنى بها ويجوده .

فقال : لو شهد عندى الذى يغنى بها لأجزت شهادته[1] .

ويورد صاحب الأغانى لهذه الأبيات قصة طريفة ويزيد فيها بيتاً على خلاف يسير فى روايتها عما هنا حيث نسبت إلى عبد الله بن العباس الربيعى المغنى أنه قال : لقينى سوار بن عبد الله القاضى وهو سوار الأصغر ، فأصغى إلى وقال : لى إليك حاجة فأتنى فى خفى لجئته .

---

(١) تاريخ بغداد جـ ٩ ص ٢١١

فقال : لى إليك حاجة قد أنست بك فيها لأنك لى كالولد ، فإن شرطت لى كتمانها أفضيت بها إليك .

فقلت : ذلك للقاضى على شرط واجب .

فقال : إنى قلت أبياتاً فى جارية لى أميل إليها ، وقد قلتنى وهجرتنى وأحببت أن تصنع فيها لحناً وتسمعنيه ، وإن أظهرته وغنيته بعد أن لا يعلم أحد أنه شعرى ، فلست أبالى ، أتفعل ذلك ؟

قلت : نعم حباً وكرامة .

فأنشدنى :

سلبت عظامى لحمها فتركتها	عوارى فى أجلادها تتكسر
وأخليت منها مخها فكأنها	أنابيب فى أجوافها الريح تصفر
إذا سمعت باسم الفراق ترعدت	مفاصلها من هول ما تتحذر
خذى بيدى ثم اكشفى الثوب فانظرى	بلى جسدى لكننى أتستر
وليس الذى يجرى من العين ماؤها	ولكنها روح تذوب فتقطر

فصنعت فيها لحناً ثم عرفته خبره فى رقعة كتبتها إليه ، وسألته وعداً يعدنى به المصير إليه .

فكتب إلى نظرت فى القصة فوجدت هــــذا لا يصلح ، ويتكتم على حضورك وسماعى إياك ، وأسأل الله أن يسرك ويبقيك .

فغنيت الصوت وظهر حتى تغنى به الناس .

فلقينى سوار فقال : ياابن أخى قد شاع أمرك فى ذلك الباب حتى سمعناه من بعد كأنا لم نسمع القصة فيه[1] .

---

(١) الأغانى جـ ١٧ ص ١٣٨ ساس .

وعلى الرغم مما يروى عن سوار من هزة تعروه للقول الجميل والشعر النقى واللحن الآسر فإنه لم يكن يتساهل فى أمر من أمور القضاء أو يتسامح فى عدالة الشهود ، ومن ذلك ما يروى أنه رد شهادة رجل لأنه كان يشرب النبيذ على الرغم من أن كثيرين ممن ينتسبون إلى العلم فى العراق كان يروى عنهم تعاطيه ، وكان الرجل الذى رده سوار يتعاطى الشعر فقال :

أما الشراب فإنى غير تاركه ولا شهادة لى ما عاش سوار[1]

ودخل أعرابى من بنى العنبر على سوار القاضى فقال : إن أبى مات فتركنى وأخاً لى — وخط خطين — ثم قال : وهجينا[2] — ثم خط خطاً ناحية ، ثم قال : كيف ينقسم المال بيننا ؟

فقال : المال بينكم أثلاثاً إن لم يكن وارث غيركم .

فقال له : لا أحسبك فهمت ، إنه تركنى وأخى وهجيناً لنا .

فقال سوار : المال بينكم سواء .

فقال الأعرابى فى دهشة : أيأخذ الهجين كما آخذ ويأخذ أخى ؟

قال : أجل .

فغضب الأعرابى وقال : ما علمت والله أنك قليل الخالات بالدهناء[3] .

قال سوار : لا يضرنى ذلك عند الله شيئاً .

---

(١) العقد جـ ٣ ص ٣٦٨ عيون الأخبار جـ ٤ ص ٦١

(٢) الهجين هو الذى أمه ليست عربية .

(٣) يشير بهذا إلى أن سواراً ليس عربى الأم .

وكان سوار إذا سئل حاجة عنده قال : نعم فإن لم يكن عنده كان جوابه : يقضى الله تحرزاً من قول لا :

ما قال : لا قط إلا فى تشهده   لولا التشهد لم تسمع له لا لا[١]

هذه أخبار سوار الحفيد رحمه الله .

أما جده فقد كانت له خصومات مع السيد الحميرى الشاعر حتى إنه لم يستطع أن ينسى له رده لشهادته فلم يعفه الموت من هجوه له بعد الممات وقد بدأت الخصومة بين سوار الجد وبين السيد الحميرى حينما دعاه رجل ليؤدى شهادة أمام سوار فاستعفاه السيد الحميرى وبذل له مالا فلم يعفه ، فلما تقدم إلى سوار وأدلى بشهادته .

قال : ألست المعروف بالسيد ؟

قال : بلى .

قال : أستغفر الله من ذنب تجرأت به على الشهادة عندى ، قم لا أرضى بك ، فقام مغضباً من مجلسه ، وكتب إلى سوار رقعة يقول فيها :

قم بنا يا صاح واربع   بالمغانى الموحشات
يأتين الله يا منصور   يا خير الولاة
إن سوار بن عبد الله   من شر القضاة
نعثل جعلى لكم   غير موات
جده سارق عنز   فجرة من فجرات
لرسول الله والقا   ذفة بالمنكرات

---

(١) العقد الفريد جـ ٨ ص ٨٦

وابن من كان ينادى من وراء الحجرات
يا هناة أخرج إلينا إننا أهل هنات
مدحنا المدح ومن نرم يصب بالزفرات
فاكفنيه ، لا كفاه الله شر الطارقات

فلما قرأها سوار وثب من مجلسه قاصداً أبا جعفر المنصور فوجد السيد الحميرى قد سبقه إلى المنصور وأنشده :

قل للإمام الذى ينجى بطاعته يوم القيامة من بحبوحة النار
لا تستعن جزاك الله صالحة ياخير من دب فى حكم - بسوار
لا تستعن بخبيث الرأى ذى صلف جم العيوب عظيم الكبر جبار
تضحى الخصوم لديه من تجبره لا يرفعون إليه لحظ إبصار
تيهاً وكبراً ولولا ما رفعت له من ضبعه كان عين الجائع العارى

ودخل سوار : فلما أبصره المنصور تبسم ، وقال أما بلغك خبر إياس ابن معاوية حيث قبل شهادة الفرزدق واستزاد فى الشهود ، فما أحوجك للتعرض للسيد ولسانه ثم أمر السيد بمصالحته والاعتذار إليه ، ولكن سواراً رفض قبول اعتذاره فهاج من غضب السيد الحميرى وهجاه هجاء أقذع وأوجع من الأول حيث قال :

أتيتك دعى بنى العنبر أروم اعتذاراً فلم أعذر
فقلت لنفسى وعاتبتها على اللؤم فى فعلها أقصرى
أيعتذر الحر مما أتى إلى رجل من بنى العنبر
أبوك ابن سارق عنز النبى وأمك بنت أبى جحدر
ونحن على رغمك الرافضون لأهل الضلالة والمنكر(١)

---

(١) الأغانى جـ ٧ ص ١٦

وقد اشتد حنق سوار عليه وأخذ يتحين الفرص للإيقاع به حتى بلغ السيد أن سواراً أعد جماعة ليشهدوا عليه بالسرقة فيقطعه، فشكاه إلى أبي جعفر فدعا سواراً وقال له قد عزلتك عن الحكم للسيد أو عليه فلاتعرض له حتى مات ولم يعرض له السيد بهجاء طوال حياته استجابة لنهى المنصور ولكن الإحن فى قلب السيد لم تهدأ على سوار ولم تخفف الأيام مابه من غيظ فما كاد يعرف بوفاته، وتصادف أن وقع حفر قبره فى موضع كنيف فاستغلها السيد فى التشنيع عليه وقال من قصيدة يرثى بها عباد بن حبيب المهلب ودفعها إلى نوائح الأزد ومنها :

يا من غدا حاملا جثمان سوار   من داره ظاعناً منها إلى النار
لا قدس الله روحاً كان هيكلها   فقد مضت بعظيم الخزى والعار
حتى هوت قعر برهوت معذبة   وجسمه فى كنيف بين أقذار
لقد رأيت من الرحمن معجبة   فيه وأحكامه تجرى بمقدار
فاذهب عليك من الرحمن بهلته   ياشر حى براه الخالق البارى(١)

ولم يكن السيد هو الذى تعرض لسوار بهذا الهجاء المقذع فقط، فلم يكن حظه من الأعراب خيراً من حظه مع السيد، فقد جاءه أعرابى فلم يجد منه ما يحب، فقال فيه :

رأيت لى رؤيا وعبرتها   وكنت للأحلام عبارا
بأننى أخبط فى ليلتى   كلباً، فكان الكلب سوارا

وهذه سنة القضاة دائماً مبتلون بذوى الألسنة السليطة والهجاء المقذع .

---

(١) الأغانى جـ ٧ ص ١٩

بكار بن قتيبة

١٨٢ هـ — ٢٧٠ هـ

المحتسب الصابر التقى الورع العالم المحدث الثقة الفقيه القاضى بكار بن قتيبة ابن عبد الله بن أسد بن أبى بردعة ينتهى نسبه إلى أبى بكرة الثقفى مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم القاضى البصرى الحنفى أبو بكرة ولد بالبصرة سنة ١٨٢ هـ ، وتوفى بالقاهرة سنة ٢٧٠ هـ ، عن عمر ناهز السابعة والثمانين قال فى النجوم الزاهرة : هو أحد الأئمة الاعلام ، كان عالماً فقيهاً محدثاً صالحاً ورعاً عفيفاً ثقة مات وهو أعلم أهل زمانه بالديار المصرية .

ولاه المتوكل قضاء مصر فى جمادى الآخرة سنة ٢٤٦ هـ فحل بها يوم الجمعة لثمان خلون من الشهر .

وكان بكار يذهب إلى رأى أبى حنيفة ، تعلم الشروط بالبصرة من هلال ابن يحيى الرأى[1] وسمع الحديث من أبى داود الطيالسى وأقرانه[2] . وكان بكار معجباً بأبى ابراهيم المزنى صاحب الشافعى ويحب أن يسمع كلامه وينصت لحجاجه ، فقد روى ابن زولاق أن بكاراً اجتمع والمزنى يوماً فى جنازة ، فأشار بكار إلى أبى جعفر التل أن يسأل المزنى عن مسألة ، فقال التل موجهاً حديثه إلى المزنى : مارايت أعجب من أصحابنا الشافعيين ، لهم أحاديث فى تحريم قليل النبيذ ، ولنا أحاديث فى تحليله .

فمن جعلهم أولى بأحاديثهم منا بأحاديثنا ؟

---

(١) القضاة والولاة ص ١٤٩

(٢) العبر فى أخبار من غبر جـ ٢ ص ٤٤ تحقيق المرحوم فؤاد السيد ،

فقال المزنى : ليس يخلو أن تكون أحاديثكم بل أحاديثنا أو بعدها، فإن كانت قبلها فهكذا نقول ، إنها كانت محللة ثم حرمت فما نحتاج إلى أحاديثكم ، وإن كانت أحاديثكم بعد أحاديثنا فهذا لا يقوله أحد ، لأنها كانت حلالا ثم صارت محرمة ثم حلت . فقال فيه بكار : سبحان الله ! إن يكن كلام أدق من الشعر فهذا[١] .

وكان القاضى بكار متحرياً للعدل عفيفاً جميل الطريقة محمود السيرة ورعاً مستشعراً المسئولية الملقاة على عاتقه ، وما يترتب على قضائه من نيل الحقوق أوضياعها ولذلك كان شديد التحرى والمحاسبة لما يقول ويفعل ، وكان إذا فرغ من الحكم خلا بنفسه واستعرض وقائع القضايا التى حكم فيها وما حكم به ثم يأخذه البكاء ويخاطب نفسه قائلا : يابكار تقدم إليك رجلان فى كذا ، وتقدم إليك خصمان بكذا ، وحكمت بكذا ، فما يكون جوابك غداً »[٢]

وكان إذا تقدم إليه الخصوم وأرادوا اليمين يتلو عليهم قول الله تعالى : « إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمناً قليلا أولئك لا خلاق لهم فى الآخرة ولا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم »[٣].

وكان يدقق كثيراً فى أمر الشهود ولا يسمح لصلات القربى أو الصداقة والمودة أن يكون لها مجال عند تقديره لعدالة الشهود وجرحهم ، فيروى ابن أخيه أنه قدم على عمه من البصرة رجل له علم ونسك وزهادة ، فأكرمه

---

(١) النجوم الزاهرة الهامش جـ ٣ ص ٣٩

(٢) ابن خلكان جـ ٣ ص ٦٥ لنشر الرفاعى

(٣) سورة آل عمران الآية ٧٧

وأدناه وقربه ، وذكر صحبته له فى المكتب ، ثم انقضت فترة من الزمن جاء بعدها الرجل للشهادة فى إحدى القضايا ومعه شاهد آخر ، وكانت دهشة ابن أخى بكار بالغة حينما رآه يرد شهادة صديقه ويقبل شهادة الرجل الآخر فأقبل عليه يسأله : هذا رجل زاهد وأنت تعرفه ؟ فقال بكار : يا ابن أخى ، «رددت شهادته ، إلا أنه كنا صغاراً ، وكنا على مائدة عليها أرز وفيها حلو ، فنقبت الأرز بأصبعى ، فقال : «أخرقتها لتغرق أهلها» فقلت له : أتهزأ بكتاب الله على الطعام ؟ ثم أمسكت عن كلامه مدة ، وما أقدر على قبول قوله، وأنا أذكر ذلك منه»[1] .

حكى جار لبكار اسمه أحمد بن سهل الهروى قال : كنت لا ألازم غريماً لى إلا بعد صلاة العشاء الآخرة ، وكنت ساكناً فى جوار بكار ابن قتيبة ، فانصرفت ليلة إلى منزلى فسمعت بكاراً يقرأ : «يا داود إنا جعلناك خليفة فى الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب»[2]. فوقفت وقوفاً طويلا وأنا أسمعه يكررها ، ثم انصرفت فقمت فى السحر على أن أصير إلى منزل الغريم فإذا بكار يقرأ الآية ، ويرددها ويبكى ، فعلمت أنه قضى ليله بقراءتها .

وكان بكار بن قتيبة من البكائين التالين لكتاب الله وكان كثيراً ما يردد :

لنفسى أبكى لست أبكى لغيرها ليعيبنى فى نفسى عن الناس شاغل[3]

---

(١) ابن خلكان جـ ٣ ص ٦٦

(٢) سورة ص ، آية : ٢٦

(٣) تهذيب تاريخ ابن عساكر جـ ٣ ص ٢٨١

وكان إلى جانب قيامه بالقضاء يعقد مجلساً يحدث الناس فيه بالمسجد ، وكان ابن طولون يعظمه ويعرف قدره ، ويذهب إلى حلقته فى المسجد يسمع منه وهو يملى الحديث ومجلسه مملوء بالناس ، ويتقدم الحاجب قائلا لا يتغير أحد من مكانه ، فما يشعر القاضى بكار إلا وابن طولون إلى جانبه ، فيقول له : أيها الأمير ، ألا تركتنى حتى كنت أقضى حقك ، وأؤدى واجبك أحسن الله جزاءك وتولى مكافأتك»[1] .

وظل الأمر بين القاضى بكار والأمير أحمد بن طولون يجرى على خير ما يكون من الإجلال والاحترام والمودة والتقدير وكان ابن طولون يجرى عليه مرتبه مضيفاً إليه ألف دينار يقدمها له فى كيس كل عام حتى فسد الأمر بين المعتمد وأخيه الموفق وانحاز ابن طولون إلى جانب المعتمد وكان الموفق هو رجل الدولة الفعلى طلب ابن طولون من العلماء أن يفتوا بخلع الموفق من ولاية العهد ، ولكن القاضى بكار بن قتيبه امتنع عن ذلك ، فحاول معه مرات فلم يجد منه استعداداً للاستجابة لرغبته فبدأ الأمر يفسد بينهما .

وهناك روايتان تقول إحداهما أن ابن طولون طلب من القاضى بكار أن يلعن الموفق فتوقف فى ذلك فغضب ابن طولون فلما تبين ذلك بكار من ابن طولون ، وظهرت له موجدته عليه قال له : ألا لعنة الله على الظالمين ، فقيل لابن طولون إنه إنما قصدك بهذا ، هذه رواية كتاب القضاة[2] ، أما غيره فيقول : إن ابن طولون جمع القضاة والفقهاء والأشراف وسيرهم إلى دمشق فاجتمعوا بها ، وخلع الموفق ، وأن الفقهاء أفتوا بخلعه إلا بكار

---

(١) النجوم الزاهرة جـ ٣ ص ١٩

(٢) القضاة الذين ولوا مصر ص ١٤٩

ابن قتيبة ، فإنه قال له : أنت أوردت على كتابا من المعتمد أن الموفق ولى عهده فأورد على كتاباً منه بخلعه .

فقال ابن طولون : هو الآن مقهور مغلوب ، وأنا أحبسك حتى يرد كتابه بالخلع[1] .

وسواء كان السبب الرواية الأولى أو الثانية فإن ابن طولون أمر بحبس بكار فى دار أعدها له ، وطلب إليه أن يعيد الجوائز التى قدمها له خلال السنوات الماضية ظناً منه أنه تصرف فيها وأراد أن يعجزه بردها ولكن بكاراً كان يحتفظ بها مختومة كما تسلمها ولذلك كان رده أنها كما تسلمها فى داره وأن ابن طولون يستطيع أن يستعيدها وكان عددها ثمانية عشر كيساً أو ستة عشر فى كل منها ألف دينار ، فاستحيا ابن طولون من استرداد الأكياس ، ولكن ذلك لم يصرفه عن استمرار اعتقال بكار وطلب إليه أن يسلم القضاء إلى محمد ابن شاذان الجوهرى ، فكان يتصرف فى القضاء طوال اعتقال بكار كنائب عنه[2] .

وكان بكار يتهيأ لصلاة الجمعة كل يوم جمعة فيغتسل عند حلول الوقت ثم يلبس أحسن ثيابه ثم يخرج إلى السجان ، فيقول له السجان : إلى أين تريد ؟

فيقول بكار : أريد صلاة الجمعة ، فيقول له السجان : لا سبيل إلى ذلك فيرجع بكار ويقول : الله المستعان[3] .

---

(١) ابن خلكان ج ٢ ص ٦٣

(٢) ابن خلكان ، والنجوم الزاهرة ، وتهذيب تاريخ دمشق .

(٣) القضاة ص ١٥٠

ولما سجن بكار انقطع مجلس الحديث فضج أصحاب الحديث وشكوا إلى ابن طولون انقطاع إسماع الحديث من بكار ، وسألوه أن يأذن لهم فى تلقى الحديث عنه فاستجاب ، وكان بكار يحدث من داخل سجنه من طاق فيه والناس فى الخارج يتلقون عنه ، فيالها من صورة رائعة تجبر الحكام على الخضوع لسلطان العلم والتطامن أمام عظمته وكم شهد تاريخ المسلمين من عظماء أملوا كتبهم من داخل جدران السجون فلم يمنع ذلك طلاب المعرفة أن يسعوا إليهم ويأخذوا عنهم ، وحسبنا أن تعلم فى هذا المقام أن السرخسى أملى كتابه المبسوط على تلاميذه من خلف أسوار السجن فهى وإن منعت اتصال الأجسام فلم تمنع نور المعرفة أن ينفذ من خلال جدرانها السميكة فيضىء عقول الطلاب ويهدى قلوبهم .

وقد ظل بكار فى سجنه حتى اعتل ابن طولون ودنا منه الموت فبعث إلى بكار يعرض عليه أن يعيده إلى أحسن مما كان عليه من المنزلة والجاه والسلطان ، فما كان من بكار إلا أن رد عليه رد العالم الوقور الجلد الصبور المؤمن الواثق فى عدل الله سبحانه وكان هذا الرد الذى عبرت عنه كلمات بكار أشد هولا على نفس ابن طولون من كل الشدائد ، فقد قال للرسول الذى جاءه : قل له : شيخ فان ، وعليل مدنف ، والملتقى عن قريب بين يدى الله ، والقاضى الله عز وجل ، فأبلغ الرسول ذلك ابن طولون ، فأطرق ساعة ، ثم أقبل يقول : شيخ فان وعليل مدنف والملتقى قريب والقاضى الله ، وكرر ذلك إلى أن غشى عليه .

وفضل بكار بعد موت ابن طولون أن يبقى بالدار التى حبس بها قائلا إنه ألفها وتعهد بدفع إيجارها ثم توفى فى نفس العام بعد أربعين يوماً من وفاة ابن طولون عن ٨٧ سنة فرحمه الله وأكرم مثواه

يحي بن أكثم القاضى

يحي بن أكثم القاضى ينتسب إلى أكثم بن صيفى الحكيم المشهور أصله من بنى تميم ، ولد بمرو ، وسمع شيوخها ، وتتلمذ عليهم ، ومن أشهرهم عبد الله بن المبارك . وقد كان أبوه حريصاً على أن يثبت لابنه سماع من ابن المبارك حتى إن الخطيب البغدادى روى أن أبا يحي لما سمع ابنه من ابن المبارك وهو صغير صنع طعاماً ودعا الناس إليه ، وقال : اشهدوا أن هذا سمع من ابن المبارك وهو صغير(1) .

وقد بدت مخايل النجابة والذكاء على يحي منذ حداثة سنه وأعطى قدرة على إيراد الحجة حتى مع شيوخه وأساتذته ، فقد كان من شيوخه الذين يتلقى عنهم الحديث وهو صغير سفيان بن عيينة ، ويبدو أنه كان شديد الضجر والتعالى على من يتلقون عنه وكانوا يتقبلون ذلك منه حرصاً على أن ينالوا ما عنده من الرواية .

وجلس فى مجلسه مرة وقد ضاق بمن يأخذون عنه فلم يتمالك نفسه أن قال :

أليس من الشقاء أن أكون جالست ضمرة بن سعيد ، وجالس أبا سعيد الخدرى ، وجالست عمرو بن دينار ، وجالس جابر بن عبد الله ، وجالست عبد الله بن دينار وجالس ابن عمر ، وجالست الزهرى ، وجالس أنس ابن مالك ، ثم عدد جماعة آخرين ممن جالسهم ، ثم أتبع ذلك موجهاً الحديث إلى من حضره من طلاب الحديث قائلا لهم : ثم أنا أجالسكم .

---

(1) تاريخ بغداد جـ ١٤ ص ١٩٢

فانبرى له حدث فى المجلس قائلا : أتتصف ياأبا محمد ؟

قال : إن شاء الله

قال له : والله لشقاء من جالس أصحاب رسول الله ﷺ بك أشد من شقائك بنا .

فأطرق سفيان وتمثل بشعر أبى نواس :

خل جنبيك لرام وامض عنا بسلام

مت بداء الصمت خير لك من داء الكلام

فسئل من الحدث ؟

قالوا : يحيى بن أكثم .

فقال سفيان : هذا الغلام يصلح لصحبة هؤلاء — يعنى السلطان[1] .

إلمامه بالشعر :

كان يحيى ذا حس أدبى ومعرفة بالشعر قرضاً واستشهاداً واضطلاعاً ، وقد بدا ذلك فى كثير من مواقفه وتصرفاته سواء مع أصدقائه أو فى مجالس القضاء أو مع الخلفاء ، ومن شعره الذى أورده له الخطيب من رواية قاسم ابن الفضل قال قرأت كتاباً ليحيى بن أكثم بخطه إلى صديق له :

جفوت وفيما مضى كنت تفعل وأغفلت من لم تلفه عنك يغفل

وعجلت قطع الوصل فى ذات بيننا بلا حدث أو كدت فى ذاك تعجل

فأصبحت لولا أننى ذو تعطف عليك بودى صابر متحمل

(١) تاريخ بغداد ج ٤، ص ١٩٣

أرى جفوة أو قسوة من أخى ندى إلى الله فيهما المشتكى والمعول
فأقسم بالله لولا أن حقك واجب على وأنى بالوفاء موكل
لكنت عزوف النفس عن كل مدبر وبعض عزوف النفس عن ذاك أجمل
ولكننى أرعى الحقوق وأستحى وأحمل من ذوى الود ماليس يحمل
فإن مصاب المرء فى أهل وده بلاء عظيم عند من كان يعقل

ودخل عليه فى مجلس القضاء بكر بن أحمد العزار النضرى فقال : أيها القاضى أتأذن لى فى الكلام فإن مجلسك مجلس حكم ؟

فقال له : قل .

فأنشأ يقول :

ماذا تقول كلاك الله فى رجل يهوى عجوزاً أراها بلغت تسعين

فنكت القاضى فى الأرض ورفع رأسه وأنشأ يقول :

يبكى عليه ، وقد حق البكاء له إن العجوز لها حين من الحين

ولما بدا نجم يحيى يلمع ويأخذ وضعه فى مجالات الدولة ودواوينها، حتى بلغ الأمر أن أحداً فى الدولة العباسية لم يكن يجرؤ على أن يمضى أمراً إلا بعد أن يوافق عليه يحيى بن أكثم ، وأيما رجل بلغ فى الحياة العامة هذه المكانة لا بد أن تتناوله الألسن بالحق و بالباطل ويتعرض له الناس بالأقاويل وينسبون إليه من النقائص مايعبرون به عن ضيقهم من السلطة ومن يمثلونها، وتتوزع هذه الاتهامات على رجال الدولة كل بحسب ما يرى مطلقو الإشاعات أنه ينفق عند العامة وتلوكه الألسن وينطلق بين الناس انطلاق النار فى الهشيم ، أو إن أردت تعبيراً معاصراً فإنه تسرى بين الناس كالسرى الكهرباء فى أسلاكها .

وقد نال يحيي بن أكثم من هـذه الإشاعات نصيباً ليس باليسير ، ويبدو لى أن الرجل بمقدار ما يتمكن من مقادير الأمور بمقدار ما يناله من غضب الناس ونقمتهم ، يصبون تلك النقمة فى اتهامات مفظعة ، ولهذا اتهم يحيي بما اتهم به قوم لوط ، وانطلقت ألسنة الشعراء تتناول هذا الأمر فى عصره وبعد عصره ، حتى بلغ الأمر أن رجلا كالمسعودى حشد طائفة من الأشعار التى تحمل هـذه الاتهامات كنا نود أن يعف عن إيرادها رجل فى مثل منزلته .

وقد يلمس القارىء للمسعودى أنه لم يكن يحمل ليحيي ما يحمل غيره من المؤرخين الموثوقين من احترام وإجلال وتقدير ، ومن هذه الاتهامات التى أطلقت وتناقلتها الألسن حتى أنشد بيتاً منها الخليفة المأمون القصيدة التى يقول فيها أحمد بن أبى نعيم :

أنطقنى الدهر بعد إخراسى ... لنائبـات أطلن وسواسى

يا بؤس للدهر لا يزال كما ... يرفع من ناس يحط من ناس

لا أفلحت أمة وحق لهـا ... بطول نكس وطول إتعاس

ترضى بيحيي يكون سائسها ... وليس يحيي لهـا بسواس

قاض يرى الحد فى الزناء ولا ... يرى على من يلوط من باس

يحكم للأمرد الغرير على ... مثل جرير وابن عباس

فالحمد لله كيف قد ذهب الـ ... عدل وقل الوفاء فى الناس

أميرنا يرتشى وحاكمنا ... يلوط والراس شر ماراس

لو صلح الدين واستقام لقد ... قام على الناس كل مقياس

لا أحسب الجور ينقضي وعلي الأمة قاض من آل عباس

وقد سرت هذه الإشاعات حتى وصلت إلى المأمون حتى إنه قال يوماً ليحيى معرضاً به : من الذى يقول :

قاض يرى الحد فى الزناء ولا يرى على من يلوط من باس

فأجاب يحيى فى قوة أسكتت الخليفة وجعلته يشعر بالخجل . متسائلا : أو ما يعرف أمير المؤمنين من قاله ؟

قال : لا .

قال : يقوله الفاجر أحمد بن أبى نعيم الذى يقول :

حاكمنا يرتشى وقاضينا يلوط والراس شر ماراس

لا أحسب الجور ينقضى وعلى الأمة وال من آل عباس

فأفحم المأمون وسكت خجلا .

ولم يجد طريقة يدارى بها خجله إلا أن يقول : ينبغى أن ينفى أحمد ابن أبى نعيم إلى السند[1] .

وقد انتقلت هذه الشائعة إلى جمهور الناس فأخذوا يعرضون بيحيى فى مواقف كثيرة ، ومن ذلك أن يحيى تولى ديوان الصدقات على الأضراء فلم يعطهم شيئاً ، فطلبوه وطالبوه فلم يعطهم ، فاجتمعوا ، فلما انصرف من جامع الرصافة من مجلس القضاء سألوه وطالبوه .

فقال : ليس لكم عند أمير المؤمنين شىء .

فقالوا : إن وقفنا معك إلى غد تزيدنا على هذا القول شيئاً ؟

فقال : لا .

---

(١) تاريخ بغداد ج ١٤ ص ١٩٥ ، ١٩٦

فقالوا : فلا تفعل ياأبا سعيد .

فقال : الحبس الحبس . فأمر بهم فحبسوا جميعاً ، فلما كان الليل ضجوا .

فقال المأمون : ماهذا ؟

فقالوا : الأضراء حبسهم يحيى بن أكثم .

فقال : لم حبسهم ؟

فقالوا : كنوه فحبسهم .

فدعاه فقال له : حبستهم على أن كنوك ؟

فقال : يا أمير المؤمنين لم أحبسهم على ذلك ، إنما حبستهم على التعريض، قالوا لى : ياأبا سعيد ، يعرضون بشيخ لاعط فى الحربية[1] .

ومما يتصل بهذا الاتهام أن رجلا ادعى النبوة فى أيام المأمون ، فقال ليحيى بن أكثم : امض بنا مستترين حتى ننظر إلى هذا المتنبىء وإلى دعواه .

قال يحيى : فركبنا متنكرين ومعنا خادم حتى صرنا إليه ، وكان مستتراً بمذهبة ، فخرج آذنه .

فقال : ومن أنتما ؟

فقلنا : رجلان يريدان أن يسلما على يديه .

فأذن لنا ودخلا ، فجلس المأمون عن يمينه ويحيى عن يساره .

---

(١) تاريخ بغداد جـ ١٤ ص ١٩٤ ، ١٩٥

فالتفت إليه المأمون فقال له : إلى من بعثت ؟

قال : إلى الناس كافة .

قال : فيوحى إليك ، أم ترى فى المنام ، أم ينفث فى قلبك أم تناجى أم تكلم ؟

قال : بل أناجى وأكلم .

قال : ومن يأتيك بذلك ؟

قال : جبريل .

قال : فتى كان عندك ؟

قال : قبل أن تأتينى بساعة .

قال : فما أوحى إليك ؟

قال : أوحى إلى أنه سيدخل على رجلان ، فيجلس أحدهما عن يمينى والآخر عن يسارى ، فالذى عن يسارى ألوط خلق الله .

قال المأمون : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأنك رسول الله ، وخرجا يتضاحكان[1] .

على أن الثقاة من العلماء قد نفوا عن يحيى هذه التهمة وأمثالها مما أخذ به رجال عصره فى زمانه وعلى رأس هؤلاء الذين نفوا عن يحيى هذا الاتهام الظالم أحمد بن حنبل حينما سئل عنه فأجاب :

- ما عرفناه ببدعة .

---

(١) العقد الفريد جـ ٧ ص ١٩٣

فلما ذكر له مايريب الناس : أنكره إنكاراً شديداً وقال : سبحان الله ، ومن يقول هذا ؟[١] .

وقال مثل ذلك أو قريباً منه إسماعيل بن إسحاق حينما ذكر موقفه من زواج المتعة ووقوفه فى وجه المأمون لما نادى بتحليله فقال معلقاً على ذلك الموقف : كان له يوم فى الإسلام لم يكن لأحد مثله .

فقال له رجل : فما كان يقال ؟

قال : معاذ الله أن تزول عدالة مثله بتكذيب باغ وحاسد[٢] .

وكذلك كان رأى الخطيب البغدادى فيه فقد أثنى عليه كثيراً ، وقد نقل ثناء العلماء على علمه ودينه ورياسته ، فقد روى قول الحافظ النيسابورى : « كان يحيى بن أكثم التميمى أبو محمد القاضى المروزى من أئمة أهل العلم ، ومن نظر له فى كتاب التنبيه عرف تقدمه فى العلوم » .

وقول طلحة بن محمد بن جعفر : « ويحيى بن أكثم أحد أعلام الدنيا ، ومن قد اشتهر أمره ، وعرف خبره ، ولم يستتر عن الكبير والصغير من الناس فضله وعلمه ورياسته وسياسته لأمره ، وأمر أهل زمانه من الخلفاء والملوك ، واسع العلم بالفقه ، كثير الأدب ، حسن العارضة قائم بكل معضلة[٣] .

وعلى الرغم من أنه عاصر المأمون وفتنة القول بخلق القرآن إلا أنه كان واضح الرأى أن القرآن كلام الله غير مخلوق ، وفى هذا يقول الخطيب البغدادى

---

(١) تاريخ بغداد جـ ١٤ ص ١٩٨

(٢) و (٣) تاريخ بغداد جـ ١٤ ص ١٩٧

كان يحيى سليما من البدعة ينتحل مذهب أهل السنة ، ويروى عن الفضل ابن محمد الشعرانى قوله : « سمعت يحيى بن أكثم يقول : القرآن كلام الله ، فمن قال مخلوق يستتاب ، فإن تاب وإلا ضربت عنقه»[١] .

في قضاء البصرة :

ولما بلغت سن يحيى بن أكثم عشرين سنة كان قد نبه أمره وعلا شأنه ، وعرف بين الناس بالعلم والفقه حتى أهله ذلك فى تلك السن المبكرة أن يلى قضاء البصرة ، ولما ذهب إلى هناك لمباشرة عمله استصغره أهلها ، وبدا عليهم عدم الرضى من أن يلى أمور القضاء فيهم حدث صغير مثله ، فجاء إليه أحدهم وقال : كم سن القاضى ؟

وأدرك يحيى من السؤال أنه يستصغره فرد عليه رداً أبان عن معرفته الواسعة وعقله الكبير فقال أنا أكبر من عتاب بن أسيد الذى وجهه النبى صلى الله عليه وسلم قاضياً على أهل مكة يوم الفتح ، وأكبر من معاذ بن جبل الذى وجه به النبى صلى الله عليه وسلم قاضياً على أهل اليمن ، وأنا أكبر من كعب بن سور الذى وجه به عمر بن الخطاب قاضياً على أهل البصرة وظل سنة لايقبل بها شاهداً ، حتى تقدم إليه أحد الأمناء فقال : أيها القاضى ، قد وقفت الأمور وتريثت .

قال : وما السبب ؟

قال : فى ترك القاضى قبول الشهود ، فأجاز فى ذلك اليوم سبعين شاهداً[٢] .

---

(١) تاريخ بغداد جـ ١٤ ص ١٩٨

(٢) تاريخ بغداد جـ ١٤ ص ١٩٨ ، ١٩٩ ، وفيات الأعيان لابن خلكان جـ ٢ ص ٢٨٨ طبع بولاق سنة ١٢٩٩ هـ .

وكان علمه الواسع بالفقه ، وغزارة أدبه ، ومقدرته على حسن عرضه لفكره سبباً فى أن ترتبط أسبابه بالمأمون ، وتتوثق الصلة بينهما حتى إن المأمون لم يلق بزمامه إلى أحد إلا ليحيى بن أكثم لما رأى فيه من رجاحة العقل وغزارة المعرفة وسداد الرأى ، وكان المأمون نفسه رجلا قد برع فى العلوم وأوتى من رجاحة العقل والثقة فيما عنده من المعارف ما جعله يجلس إلى العلماء المناظرة على قدم المساواة يقارعهم بالحجة ويرد عليهم ما يأتون به من حجج حتى يلزمهم بما يرى .

ولم نعلم أحداً فى تاريخ المأمون قد تمكن من إقناعه حتى رجع عن رأيه الذى ارتآه وأعلنه على الناس إلا يحيى بن أكثم كما سنرى ذلك فى موقفه من نكاح المتعة ، وقد كان المأمون قد وقف على ما يتمتع به يحيى بن أكثم من العقل والعلم بما أخذ بمجامع قلبه فقلده قضاء القضاة ، وأسند إليه تدبير أمور مملكته حتى يقول فى ذلك الخطيب البغدادى : « فكانت الوزراء لا تعمل فى تدبير الملك شيئاً إلا بعد مطالعة يحيى بن أكثم ، ولا نعلم أحداً غلب على سلطانه فى زمانه إلا يحيى بن أكثم وابن أبى دؤاد »[1] .

وامتدت الصحبة بين يحيى والمأمون وكان يرحل معه إذا ارتحل ويقيم معه إذا أقام ، فذهب معه إلى مصر وولاه قضاءها لما كان بها وصحبه فى سفره إلى الشام وخراسان وسواها وكان له موكب خاص ، يتميز بالأبهة والعظمة والمكانة السامية التى أحله فيها المأمون . ولم يمنعه ذلك كله أن يجاهر المأمون بما يعتقد أنه الصواب وإن كان فيه رد ما أذاعه المأمون فى الناس وأعلنه ومن ذلك موقفه من زواج المتعة :

(١) تاريخ بغداد .

فقد حدث أبو العيناء ومحمد بن منصور قالا : كنا مع المأمون فى طريق الشام ، فأمر فنودى بتحليل المتعة .

فقال لنا يحيى بن أكثم : بكرا غدا إليه ، فإن رأيتما للقول وجهاً فقولا وإلا فاسكتا إلى أن أدخل ، فدخلنا إليه وهو يستاك ، ويقول — وهو مغتاظ — متعتان كانتا على عهد رسول الله ﷺ ، وعلى عهد أبى بكر ، وأنا أنهى عنهما ، ومن أنت يا أحول حتى تنهى عما فعله النبى ﷺ وأبو بكر ؟

يقول أبو العيناء : فأومأت إلى محمد بن منصور : أن أمسك ، رجل يقول فى عمر بن الخطاب ما يقول ، نكلمه نحن ؟ فأمسكنا .

وجاء يحيى ، فجلس وجلسنا ، فقال المأمون ليحيى : مالى أراك متغيراً ؟

قال : هو غم ياأمير المؤمنين لما حدث فى الإسلام .

قال : وما حدث ؟

قال : النداء بتحليل الزنا .

قال : الزنا ؟ !

قال : نعم ، المتعة زنا .

قال : ومن أين قلت هذا ؟

قال : من كتاب الله وحديث رسول الله ﷺ ، قال الله تعالى : « قد أفلح المؤمنون الذين هم فى صلاتهم خاشعون ، والذين هم عن اللغو معرضون ، والذين هم للزكاة فاعلون ، والذين هم لفروجهم حافظون ، إلا على أزواجهم

أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين ، فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون »[١] .

يا أمير المؤمنين ، زوجة المتعة ملك اليمين ؟ . . . قال : لا .

قال : فهى الزوجة التى عنى الله ترث وتورث، وتلحق الولد، ولها شرائطها ؟

قال : لا .

قال : فقد صار متجاوز هذين من العادين .

وهذا الزهرى — ياأمير المؤمنين — روى عن عبدالله والحسن ابنى محمد ابن الحنفية عن أبيهما محمد بن على عن على بن أبى طالب قال : أمرنى رسول الله صلى الله عليه وسلم : بأن أنادى بالنهى عن المتعة وتحريمها بعد أن كان أمر بها.

فالتفت إلينا المأمون ، فقال : أمحفوظ هذا من حديث الزهرى ؟

فقلنا : نعم ياأمير المؤمنين ، رواه جماعة منهم مالك ..

فقال : أستغفر الله ، نادوا بتحريم المتعة . فنادوا بها[٢] .

وهذا لعمرى موقف مشهود ليحيى بن أكثم لا ينسى ، ولا يظن برجل يبلغ به الحرص على الجهر بالرأى أن يواجه الخليفة بهذه الصراحة التى جعلته يستغفر الله مما فعل لا يظن برجل يفعل ذلك أن يكون منه ما أراد بعض حساده والكائدين له أن يشيعوا عنه من الأمور الشائنة وما أصدق الشاعر الذى يقول :

إن العرانين تلقاها محسدة ولا ترى لئام الناس حسادا

---

(١) سورة المؤمنون .

(٢) تاريخ بغداد جـ ١٤ ص ١٩٩ ، ٢٠٠ ، وفيات الأعيان جـ٢ ص ٢٨٨ ، ٢٨٩

وهذا الموقف هو الذى جعل القاضى المشهور إسماعيل بن إسحاق يقول عنه : كان له يوم فى الإسلام لم يكن لأحد مثله .

والذى يعرف طريقة المأمون فى اختيار الرجال لا يستبعد عليه أن يفعل ذلك مع يحيى بعد أن أدرك من رجاحة عقله ما جعله يسلم قياده إليه ، فقد كان من عادة المأمون أن يختبر الرجل قبل أن يوليه عملا ، وكان قد أراد رجلا يوليه القضاء فوصف له يحيى بن أكثم وكانت له مسائل يعرف من إجابتها مقدرة الرجل .

فلما حضر يحيى ورآه المأمون استحقره لأنه كان دميم الخلقة وأدرك يحيى ذلك ، فقال : يا أمير المؤمنين : سلنى إن كان القصد على لا خلق ، فسأله عن مسألتين فى الميراث تعرفان بالمأمونية ، فسأل يحيى : الميت الأول رجل أو امرأة ، عند ذلك أدرك المأمون أنه عرف المسألة وولاه القضاء(١) .

كان يحيى لا يشرب النبيذ :

والذى يبدو من مطالعة أخبار يحيى وأحواله وما نقله الثقات من المؤرخين عنه أنه لم يكن يتعاطى النبيذ ولا يشرب المسكر على الرغم من أن كثيراً من كتب الأخبار ألصقت به كثيراً من هذا اللون من التصرفات ، وأنه كان دائماً ينادم المأمون على الشراب .

والواقع أن القارىء لأخبار الخلفاء ورجالهم يقع فى حيرة مما تذكره كتب الأخبار عنهم فى مجالسهم الخاصة ، وإن المرء ليرى صعباً عليه أن

---

(١) وفيات الأعيان ج ٢ ص ٢٨٨

يتقبل أن رجلا فى عقل المأمون والرشيد وفى تقواهما وخشيتهما من الله يسمح لنفسه أن يجعل حياته كلها شراباً وندامى وسكراً وعربدة ولعل فى الأمر لبساً أو تزيداً من الرواة وولعاً من الناس بالتعبير عن ضيقهم من ذوى السلطان بأن ينسبوا إليهم من التصرفات ما لا يليق بذوى المروءة والحشمة والتدين من الرجال .

ولعل مانسب إلى يحيى بن أكثم من هذا القبيل، فإن الإنسان ليحار حقاً حينما يرى رجلا مثل المسعودى على جلالته وثقته فى التاريخ يروى أشياء مشهرة عن يحيى تتهم دينه وعفته ، ثم يقول : فاتصل يحيى بالمأمون ورخص له فى أمور كثيرة »[1] .

ومن هذا القبيل ما رواه ابن عبد ربه فى صورة أشبه بالخرافة ، تماثل ما يروى عن أبى العيناء ، وأمثاله من الخلفاء ، قال :

شرب المأمون ويحيى بن أكثم وعبد الله بن طاهر ، فتغامز المأمون وعبد الله على سكر يحيى ، فغمز الساقى فأسكره ، وكان بين أيديهم رزم من ورد ورياحين ، فأمر المأمون فشق له لحد فى الورد والرياحين ، وصيروه فيه ، وعمل بيتين من شعر ، ودعا قينة فجلست عند رأسه وحركت العود وغنت :

ناديته وهو حى لا حراك به مكفن فى ثياب من رياحين
فقلت : قم ، قال رجلى لا تطاوعنى فقلت : خذ ، قال : كفى لاتواتينى

---

(١) مروج الذهب ج ٣ ص ٣٤٤

فانتبه يحي لرنة العود ، وقال مجيباً لها :

يا سيدى وأمير الناس كلهم قد جار فى حكمه من كان يسقينى
إن غفلت عن الساقى فصيرنى كما ترانى سليب العقل والدين
لا أستطيع نهوضاً قد وهى جسدى ولا أجيب المنادى حين يدعونى
فاختر لبغداد قاضٍ إننى رجل الراح يقتلنى والعود يحيينى

ولست أدرى كيف يتصور عاقل أن تكون حياة خليفة عرف بين الناس بالعلم والحكمة وسداد الرأى والتبحر فى ألوان المعارف على هذه الصورة مع قاضيه الذى يلى إليه أمور الناس وشئون الحكم .

والقارىء المتأمل يستطيع أن يرد هذا الخبر حينما يتذكر موقف يحيى من زواج المتعة ورده على المأمون حتى جعله ينادى فى الناس بتحريمه ويستغفر الله عما فعل بعد أن نادى بإباحته .

وكذلك يستطيع المرء أن يرفض ما نسب إلى يحيى بن أكثم من إقباله على الشراب استناداً إلى الخبر التالى الذى رواه الخطيب البغدادى ويقول فيه أن على بن خشرم قال : إن يحيى أخبره أنه لما صار إلى حفص بن غياث فتعشى عنده ، فأتى حفص بعس فشرب منه ، ثم ناوله أبا بكر بن شيبة فشرب منه ، فناوله أبو بكر يحيى بن أكثم فقال له : يا أبا بكر ، أيسكر كثيره ؟

قال : أى والله ، وقليله[1] .

فلما عرف يحيى ذلك رده ولم يشرب منه ، لا أنكان رجلا يتحرى لنفسه

---

(١) تاريخ بغداد جـ ١٤ ص ١٩٣

وهو فى مجالس من هم أكبر منه وهو لما يزل بعد فى مبدأ أمره ثم يتهاون بعد أن يصير رجل الدولة وصاحب المشورة فيها .

بين يحيى والعتابى :

كان يحيى لا يحجب عن مجلس المأمون فى أى وقت من ليل أو نهار ، وكان ذات يوم قادماً ، وإذا بالباب كلثوم العتابى ينتظر الإذن بالدخول على الخليفة طالباً رفده ومتطلعاً إلى عطاياه ، فقال العتابى ليحيى : إن رأيت أن تعلم أمير المؤمنين بمكانى ؟

قال : لست بحاجب .

قال : قد علمت ، ولكنك ذو فضل ، وذو الفضل معوان .

قال : سلكت بى غير طريق .

قال : إن الله قد ألحقك بجاه ونعمة منه ، فهما مقيمان عليك بالزيادة إن شكرت ، وبالتغيير إن كفرت ، وأنا لك اليوم خير منك لنفسك أدعوك لما فيه زيادة نعمتك ، وأنت تأبى ذلك ، ولكل شىء زكاة ، وزكاة الجاه بذله للمستعين .

فدخل يحيى فأخبر المأمون بالخبر ، فأدخل إليه العتابى ، وفى المجلس ابراهيم بن إسحاق الموصلى .

فأمره بالجلوس ، وأقبل يسأله عن أحواله ، وشأنه ، فيجيبه بلسان ناطق ، فاستظرفه المأمون وأخذ فى مداعبته .

فظن الشيخ أنه قد استخف به ، فقال : يا أمير المؤمنين الإيناس قبل الإبساس فاشتبه على المأمون قوله فنظر إلى إسحاق ثم قال : نعم ألف دينار

فأتى بها فوضعت بين يدى العتابى ، ثم دعا إلى المفاوضة ، وأغرى المأمون إسحاق بالعبث به .

فأقبل إسحاق يعارضه فى كل باب يذكره ويزيد عليه ، فعجب منه وهو لا يعلم أنه إسحاق .

ثم قال : أيأذن أمير المؤمنين فى مسألة هذا الرجل عن اسمه ونسبه .

فقال العتابى : من أنت وما اسمك ؟

قال : أنا من الناس ، واسمى كل بصل .

فقال له العتابى : أما النسبة فقد عرفت ، وأما الاسم فمنكر ، وما كل بصل من الأسماء ؟

فقال له إسحاق : ما أقل إنصافك ، وما كلثوم والبصل أطيب من الثوم ؟

قال العتابى : قاتلك الله ما أملحك ، ما رأيت كالرجل حلاوة ، أفيأذن أمير المؤمنين فى صلته بما وصلنى به ، فقد والله غلبنى ؟

فقال له المأمون : بل ذلك موفر عليك ، وأمر له بمثله[1] .

حكمة يحيى ودهاؤه :

كان يحيى قد بلغ من النضج الفكرى والخبرة بالرجال ما جعله يدرك عواقب الأمور من مصادرها ، ويقف على أواخرها من أوائلها ، وقد تجلى ذلك منه فى مواقف كثيرة أجاب فيها إجابة الحكيم المجرب العارف بأحوال

---

(١) وردت هذه القصة فى الأغانى ومروج الذهب وقد التزمنا فيما أثبتناه رواية مروج الذهب ، مروج الذهب ج ٢ ص ٢٣٧ ، ٢٣٨ الأغانى ج ١٢ ص ٥ طبع ساس .

الناس وتقلبات قلوبهم وأهوائهم فقد لقيه رجل وهو على القضاء فقال له : أصلح الله القاضى كم آكل ؟

قال : فوق الجوع ودون الشبع .

فقال : فكم أضحك ؟

قال : حتى يسفر وجهك ولا يعلو صوتك .

قال : فكم أبكى ؟

قال : لا تمل من البكاء من خشية الله تعالى .

قال : فكم أخفى عملى ؟

قال : ما استطعت .

قال : فكم أظهر منه ؟

قال : مقدار ما يقتدى بك البر الخير ، ويؤمن عليك قول الناس .

قال الرجل : سبحان الله قول قاطن وعمل ظاعن[1] .

وكان الصراع بينه وبين رجال الدولة لا يهدأ لأنهم كانوا يخشون منه على أنفسهم لما يرون من مكانته عند المأمون وسلطانه عليه .

فقد وقف أحمد بن خالد الأحول وزير المأمون بين يديه ، وخرج يحيى ابن أكثم من بعض المستراحات .

فقال له المأمون : إصعد ، فصعد وجلس على طرف السرير معه .

فقال أحمد : يا أمير المؤمنين ، إن القاضى يحيى صديقى ، وممن أثق به فى جميع أمورى ، وقد تغير عما عهدته منه .

(١) وفيات الأعيان جـ ٢ ص ٢٨٩ ، تاريخ بغداد جـ ١٤ ص ٢٠٠

فقال المأمون : يا يحيى ، إن فساد أمر الملوك بفساد خاصتها ، وما يعدلكما عندى أحد ، فما هذه الوحشة بينكما ؟

فقال له يحيى : يا أمير المؤمنين ، والله إنه ليعلم أنى له على أكثر ما وصف ولكنه لما رأى منزلتى منك هذه المنزلة ، خشى أن أتغير له يوماً ، فأقدح فيه عندك ، فأحب أن يقول لك هذا ليأمن منى ، وإنه والله لو بلغ نهاية مساءتى ما ذكرته بسوء عندك أبداً .

فقال المأمون : أكذلك هو يا أحمد ؟

قال : نعم يا أمير المؤمنين .

قال : أستعين الله عليكما ، فما رأيت أتم دهاء ولا أعظم فتنة منكما[1] .

يحيى وثمامة بن أشرس :

قال ثمامة : كنا عند المأمون فدخل يحيى بن أكثم ، وكان قد ثقل عليه موضعى منه ، فتذاكرنا شيئاً من الفقه .

فقال يحيى فى مسألة دارت : هذا قول عمر بن الخطاب وعبدالله بن مسعود ، وابن عمر وجابر .

قلت : أخطأوا كلهم ، وأغفلوا وجه الدلالة .

فاستعظم منى ذلك وأكبره ، وقال : يا أمير المؤمنين ، إن هذا يخطىء أصحاب رسول الله ﷺ كلهم .

فقال المأمون : سبحان الله ، أكذا يا ثمامة ؟

(١) فيات الأعيان جـ ٢ ص ٢٨٩ طبعة بولاق .

قلت : ياأمير المؤمنين ، إن هذا لا يبالى ما قال ولا ماشنع به .

ثم أقبلت عليه فقلت : ألست تزعم أن الحق فى واحد عند الله عز وجل ؟

قال : نعم .

قلت : فزعمت أن تسعة أخطأوا وأصاب العاشر ، وقلت أنا أخطأ العاشر ، فما أنكرت ؟

فنظر المأمون إلى وتبسم وقال : لم يعلم أبو محمد أنك تجيب هذا الجواب .

قال يحيى : وكيف ذلك ؟

قلت : ألست تقول : إن الحق فى واحد ؟

قال : بلى .

قلت : فهل يخلى الله عز وجل هذا الحق من قائل يقول به من أصحاب رسول الله ﷺ ؟

قال : لا .

قلت : أفليس من يخالفه ولم يقل به فقد أخطأ عندك الحق ؟

قال : نعم .

قلت : وقد دخلت فيما عبت ، وقلت بما أنكرت وبه شنعت ، وأنا أوضح دلالة منك ، لأنى خطأتهم فى الظاهر ، وكل مصيب عند الله الحق ، وإنما خطأتهم عند الخلاف وأدنى الدلالة إلى قول بعضهم فخطأت من خالفنى ، وأنت خطأت من خالفك فى الظاهر وعند الله عز وجل[1] .

---

(١) م ويح لذهب جـ ٣ ص ٣٣١ ، ٣٣٢

ويبدو أن يحيى كان لا يستريح أن يرى شخصاً له من المكانة العلمية ما يشعر أنه ينازعه ويقف معه على قدم وساق ، وذلك لحسد كان فيه كما يروى ذلك الخطيب عن أحمد بن يعقوب ، فكان إذا رأى رجلا يحسن علماً انتقل به إلى علم آخر حتى يخجله ويظهر تفوقه لأنه كان مفتناً فى العلوم حتى دخل عليه رجل من خراسان زكى حافظ ، فناظره فرآه مفتناً ، فقال له : نظرت فى الحديث ؟

قال : نعم .

قال : فما تحفظ من الأصول ؟

قال : أحفظ عن شريك عن أبى إسحاق عن الحارث أن علياً رجم لوطياً[1] . فأمسك يحيى فلم يكلمه بشىء ، لأنه عرض به .

فساد الأمور بين يحيى والمأمون :

لم تستمر الأمور صافية بين المأمون ويحيى ، ويبدو أن استمرار السعاية للإفساد قد بلغت مداها وتغير قلب المأمون عليه ، فعزله عن عمله ، ويبدو أن الأمر بلغ من نفس المأمون مبلغاً عميقاً حتى إنه حذر أخاه منه لما أحس بدنو أجله .

ولا شك أن أرباب السعايات لم يكفوا وأطلقوا الإشاعات تلو الإشاعات حتى استبد الشك بنفس المأمون فى سلوك يحيى ، وأنه كما يروى صاحب الأغانى قد أغرى به أحد غلمانه وهو يرقبه من خلف الستر حتى يرى

---

(١) تاريخ بغداد ج ١٤ ص ١٩٥

ماذا يصنع ، وأنه سمع يحيى لما عبث به المملوك يقول : لولا أنتم لكنا مؤمنين ، فخرج عليه وهو ينشد :

وكنا نرجى أن نرى العدل ظاهراً   فأعقبنا بعد الرجاء قنوط
متى تصلح الدنيا ويصلح أهلها   وقاضى قضاة المسلمين يلوط[1]

ويبدو أن الأمر بينهما أعمق من ذلك فإن بعض الكتب تروى أنه عاد من رحلته معه إلى مصر مغضوباً عليه ، وظنى أن الأمر كان يتعلق برأى المأمون فى فتنة خلق القرآن فإن يحيى لم يكن يرى ذلك كما شهد بذلك ابن حنبل والخطيب البغدادى ، ولعل الخلاف فى الرأى بين الرجلين حول هـذه القضية هو الذى أفسد الأمر بينهما وجعل المأمون يشعر بوجوب التخلص من يحيى وقد تم له ذلك عام ٢١٧ هـ ، كما يقول المؤرخون والذى يرجح صحة هذا الاستنتاج أن المأمون لم يجاهر برأيه فى خلق القرآن ولم يكتب بذلك إلى رجال دولته مطالباً إياهم أن يمتحنوا العلماء والفقهاء والقضاة بالقول فى خلق القرآن وأن لا يستعملوا على القضاء ولا يسمحوا لأحد بالفتيا إلا إذا أقر بخلق القرآن لم يكن ذلك إلا سنة ٢١٨ هـ ، بعد أن نحى يحيى وتوارى ، وظل بعيداً طوال خلافة المعتصم والواثق حتى جاء المتوكل فعزل محمد بن أحمد بن أبى دؤاد وولى يحيى ما كان بيديه وقد بدأ ذلك منذ عام ٢٣٧، ومعروف أن المتوكل هو الذى أنهى فتنة القول بخلق القرآن .

على أن عقيدة المأمون فى يحيى ظلت تصاحبه حتى مات وبلغ به الأمر أن حذر أخاه المعتصم منه ومن أمثاله حيث يقول : وأبو عبد الله بن أبى دؤاد

---

(١) وفيات الأعيان جـ ٢ ص ٢٩١

فلا يفارقك وأشركه فى المشورة فى كل أمرك ، فإنه موضع لذلك منك ، ولا تتخذن بعدى وزيراً تلق إليه شيئاً ، فقد علمت ما نكبنى به يحيى بن أكثم فى معاملة الناس ، وخبث سيرته ، حتى أبان الله ذلك منه فى صحة منى، فصرت إلى مفارقته قالياً له غير راض بما صنع فى أموال الله وصدقاته ، لا جزاه الله عن الإسلام خيراً[1] .

بخل يحيى :

يبدو أن يحيى لم يكن سخى اليد بالعطاء ، ولعل ذلك يفسر حبسه الأموال عن الجماعة الذين عرضوا به لحبسهم ، وذوو السلطان ومن حولهم يتوقع الناس منهم أن تنطلق أيديهم إليهم بالعطاء فتنطلق ألسنتهم بالثناء عليهم ، فإذا قبض رجال الدولة أيديهم على الأموال ، وضنوا بها على مستحقيها كان ذلك داعياً للناس أن ينالوا من الدولة ورجالها ، ولعل ذلك كان سبباً ينضم إلى ما تقدم من ضيق المأمون بيحيى .

وقد يفسر ذلك أن الرجل الذى حل من المأمون محل يحيى وهو ابن أبى دؤاد كان كريماً جواداً إلى جانب تحمسه للقول بخلق القرآن وقيادته لهذه الفتنة أيام المأمون والمعتصم والواثق .

ومما يشير إلى بخل يحيى وعدم انطلاق يديه بالعطاء أن عبد الصمد ابن المعذل الشاعر كان من المترددين على مجلس يحيى ، وكان فى بعض الأحيان يشق عليه أن يصل إلى مجلسه فانقطع عن الذهاب إليه حتى لا يتعرض لمثل

---

(١) الطبرى جـ ٨ ص ٦٤٩ تحقيق أبو الفضل .

هذا الموقف المهين ، فأكثرت زوجته من لومه وحثته على الذهاب إلى القاضى فأنشدها :

تكلفنى إذلال نفسى لعزها وهان عليها أن أهان لتكرما
تقول : سل المعروف يحيى بن أكثم فقلت سليه رب يحيى بن أكثما[1]

وقد رد يحيى نفسه على من ذهب يسأله بما يؤكد عدم انطلاق يده بالعطاء محتجاً للمنع بمنصبه وبلده وقبيلته ، وهذه من النوادر فى الاحتجاج للبخل ، فقد جاء رجل يسأله فقال له :

إيش توسمت فى ؟ أنا قاض والقاضى يأخذ ولا يعطى.

وأنا من مرو وأنت تعرف ضيق أهل مرو .

وأنا من تميم والمثل إلى بخل تميم[2] .

وأيا كان الأمر فإن يحيى قد انزوى عن الحياة العامة منذ أن عزله المأمون عام ٢١٧ هـ ، وظل يعيش فى الظل طوال عهد المعتصم وابنه الواثق حتى تولى المتوكل الخلافة وأبطل القول بخلق القرآن ، وعزل محمد بن أحمد ابن أبى دؤاد عن القضاء سنة ٢٣٧ واستدعى يحيى بن أكثم لتولى القضاء والمظالم مما يؤكد أن أسباب إبعاد يحيى عن أمور الدولة فى هذه الفترة كانت أسباباً فكرية تتصل برأيه فى خلق القرآن .

---

(١) وفيات الأعيان جـ ٢ ص ٢٩٥
(٢) تاريخ بغداد جـ ١٤ ص ١٩٧

يحيى أيام المتوكل :

أعاد المتوكل يحيى إلى الضوء بعد أن ظل مزوياً عشرين عاماً فأسند إليه قضاء القضاة وولاء المظالم فى صفر من هذا العام .

ولم يكد يحيى يستلم مقاليد أمور القضاء حتى أخذ يعين فيها من يثق به فولى حيان بن بشر قضاء الجانب الشرقى من بغداد وولى سوار بن عبد الله العنبرى قضاء الجانب الغربى منها ، وصادف أن كلا من القاضيين كان أعور فلفتت هذه الظاهرة نظر بعض الشعراء الظرفاء وهو ابن الجماز فقال :

رأيت من الكبائر قاضيين هما أحدوثة فى الخافقين

هما اقتسما العمى نصفين قدا كما اقتسما قضاء الجانبين

وتحسب منهما من هز رأساً لينظر فى مواريث ودين

كأنك قد وضعت عليه دناً فتحت بزاله من فرد عين

هما فأل الزمان بهلك يحيى إذا افتتح القضاء بأعورين[1]

وظل يحيى على القضاء حتى عزله المتوكل سنة ٢٤٠ هـ ، واستصفى أمواله ويلاحظ أن المأمون لما عزل يحيى لم يمس أمواله .

وفى خلال هذه السنوات التى اتصلت الأسباب فيها بين يحيى والمتوكل جرى فى مجلس المتوكل حديث حول المأمون شارك فيه يحيى وسئل عن رأيه فيه فلم يقل إلا خيراً ، وأثنى على المأمون فى علمه ومعرفته ونباهته ، وقد أورد ابن جرير هذا المجلس على لسان يحيى فلنستمع إليه : ذكر يحيى ابن أكثم أنه قال : حضرت المتوكل ، فجرى بينى وبينه ذكر المأمون وكتبه

---

(١) الطبرى جـ ٩ ص ١٨٩

إلى الحسن بن سهل فقلت بتقريظه وتفضيله ووصف محاسنه وعلمه ومعرفته ونباهته قولا كثيراً لم يقع بموافقة بعض من حضر .

فقال المتوكل : كيف كان يقول في القرآن ؟

قلت : كان يقول : ما مع القرآن حاجة إلى علم فرض ، ولا مع سنة الرسول صلى الله عليه وسلم وحشة إلى فعل أحد ، ولا مع البيان والإفهام حجة اتعلم ، ولا بعد الجحود للبرهان والحق إلا السيف لإظهار الحجة .

فقال له المتوكل : لم أرد منك ماذهبت إليه من هذا المعنى .

قال له يحيى : القول بالمحاسن في المغيب فريضة على ذى نعمة .

قال : لما كان يقول خلال حديثه ، فإن المعتصم بالله يرحمه الله كان يقوله ، وقد أنسيته ؟

فقال : كان يقول : اللهم إنى أحمدك على النعم التى لايحصيها أحد غيرك ، وأستغفرك من الذنوب التى لا يحيط بها إلا عفوك .

قال : لما كان يقول إذا استحسن شيئاً أو بشر بشيء ، فقد كان المعتصم بالله أمر على بن يزداد أن يكتبه لنا فكتبه فعلمناه ثم أنسيناه ؟

قال : كان يقول : إن ذكر آلاء الله ونشرها وتعداد نعمه والحديث بها فرض من الله على أهلها ، وطاعة لأمره فيها وشكر له عليها فالحمد لله العظيم الآلاء ، السابغ النعماء بما هو أهله ، وستوجبه من محامده القاضية حقه البالغة شكره الموجبة مزيده على مالا يحصيه تعدادنا ولا يحيط به ذكرنا ، من ترادف مننه وتتابع فضله ، ودوام طوله ، حمد من يعلم أن ذلك منه والشكر له عليه .

فقال المتوكل : صدقت ، هذا هو الكلام بعينه ، وهذا كله حكم من ذى حنكة وعلم[1] .

نهاية كل حى :

وكان يحيى قد أوفى به العمر على الثمانين ، بعد أن عزله المتوكل واستصفى أمواله فرأى أن يتجرد للآخرة فاتجه إلى الحج وصحب معه أختاً له وعزم على المجاورة بمكة ، إلا أنه قد وصلته أنباء رضى المتوكل عنه ، فنازعته نفسه إلى العودة إلى العراق وترك المجاورة فوافاه الأجل المحتوم فى طريق عودته بمكان يعرف بالربذة ودفن بها فرحمه الله وتجاوز عنه .

وعلى الرغم مما أثير حول يحيى فإن ثقات المؤرخين والعلماء يثنون عليه فى خلقه ودينه ولعل ما أثير حوله إنما هو فقط من زيادات الحاسدين والحاقدين الذين قلما سلم منهم رجل ذو جاه فى قديم أو حديث .

وإنى ليتجلى لى فيه خلق الوفاء من حديثه عن المأمون مع المتوكل فإنه لم يقل فيه إلا خيراً حتى أغضب بعض رجال المتوكل .

---

(١) الطبرى جـ ٩ ص ٢٣٢

فهرس

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

رقم الإيداع ٣١٥٣ / ١٩٧٨

الترقيم الدولى ٨ — ٢٥٨ — ٢٥٦

رجاء إلى القارىء الكريم

وقعت أثناء الطبع أخطاء كثيرة بعضها يستطيع القارىء أن يهتدى للصواب فيها بفطنته فتركناها له ليتولى تصحيحها ، وبعضها الآخر يؤثر رسمه الخطأ فى صحة المعنى فصححناها فى الجدول التالى والمرجو أن يتفضل القارىء بتصحيحها فى القراءة .

تصويبات

الصفحة	الخطأ	الصواب
١٨	القافلة	القائلة
٢٠	ماجازت	ماحازت
٢٦	خمسا	سبعا
٢٨	على	عن
٣٠	اختلط	اختط
٥١	تمت	تحت
٥٩	ثوبا	ثديا
٦٠	أبين	أبيه
٦٠	فقالت	فقال
٦٢	اب	بن
٦٢	للترض	للتعرض
٦٣	الخصوغة	الخصومة
٦٣	يرى	يروى
٦٣	معقوم	مقسوم
٦٣	فيصاب	فبصواب
٦٤	فحكم	فكم
		اعلام القضاء

الصفحة	الخطأ	الصواب
٦٤	واثنتيه	واثنين
٦٥	عدى	علم
٦٨	يعزيه	يغريه به
٧٨	رجلين	رجليك
٨٠١	فتحره	فنحده
٨٧	الآخرين	الآخذين
٨٩	الزبير	أبى الزناد
٩٧	المعدودين	المعدودون
١٠٢	فقدله	فقده له
١٠٩	اصلاكا	أصلكا
١٤٣	سيدة	سيد
١٦٥	فبسط	مبسوط
١٧٠	الفرى	العنزى
١٧١	بالمعتفيين	بالمعتفين
١٧٥	يأثين	يا أمين
١٧٨	زدلاق	زولاق
١٨٣	السرفس	السرخسى